مجتمع يثرب

خليل عبدالكريم

---

[١]

مجتمع يثرب

---

[٣]

خليل عبد الكريم العلاقة بين الرجل والمراة في العهدين المحمدي والخليفي مجتمع يثرب

---

[٤]

الغلاف بريشة ايناس حسني (نساؤكم حرث لكم فتوا حرثكم اني شئتم) آية الغلاف من سورة البقرة رقم ٢٢٢ الطبعة الاولى ١٩٩٧
جميع الحقوق محفوظة الطبعة الثانية: ايلول / سبتمبر ١٩٩٧

---

[٧]

مقدمة في المجتمع المتحضر العلاقة بين طرفي النوع الانساني هي علاقة بين رجل وامراة اما في المجتمع البدائي فهى دافع بيولوجى بين فحل وموطوءة وفيه تجد مرادفات كثيرة للملامسة بينهما تشعرك انها تشغل حيزا وسيعا من تفكيرهم اما إذا كان المجتمع بدائيا وذكوريا معا فسوف تجد ان تلك المترادفات عبرت عن علو مكانة الرجل - نقصد العلو المادى - عند التماس ولا تكتفى بان تموضع الانثى في المكان الاسفل بل انها توحى بالتسوية بين الانثى والدابة وذلك يتضح بجلاء في كلمات مثل: الركوب والامتطاء والاعتلاء والوطء. وعلم الاجتماع يؤكد لنا ان تغيير احوال أي مجتمع لايتم بتأثير النصوص مهما كان شاوها من البلاغة والاعجاز ولكن بتغيير ظروفه المادية وليس معنى ذلك انكار أي دور للنصوص في عملية التطوير الاجتماعي ولكن: يعنى انها تأتى مصلية (١) - كما انها تحتاج الى وقت طويل لتؤتى ثمارها خاصة إذا قصد منها ان تقلع عادات وانساق اجتماعية ذات جذور غوائر وقواعد رواسخ واصول ثوابت في ارض المجتمع ويزداد الامر تعقيدا إذا كانت قد استمرت مئات السنين -

---

(١) في (المعجم الوجيز) لمجمع اللغة العربية / صلى الفرس في السباق: جاء مصليا وهو الثاني السباق. (*)

ويبلغ الامر تخوم اليأس إذا كانت ترضى كبرياء الرجل وتشبع غروره وتروى ظمأه الدائم ل الخنزوانة (٢). والمجتمع البدائي مليط (٣) من الانشطة الرياضية والفنية والادبية التى تشغل اوقات فراغ اعضائه ومن ثم لا يجدون امامهم منفذا لتصريف الطاقات الحيوية لديهم الا في التماس بين طرفيه يتساوى في ذلك الذكر والانثى ومن ثم يغدو هذا الفعل طقسا لابد من مباشرته يوميا وإذا اغلقت المنافذ المشروعة سعى الطرفان الى ممارسته عبر العلاقات غير المشروعة وربما كان السعي من ناحية الانثى اكثر حثا لان وقت الفراغ لديها اعرض. والانثى في المجتمع البدائي الذكورى لطول العهد ومع مرور الزمن تستعذب سيادة الرجل عليها وترى في اعتلائه وركوبه وامتطائه لها امورا طبيعية ثم تتحول الى حقوق تجهد جهدا شديدا في الحصول عليها وتتفنن في طرائق الوصول إليها فإذا لم تجدها في الضوء عثرت عليها في الظلام وإذا لم تطفئ عطشها في العلن فعلت ذلك في السر وإذا لم تتحصل على بغيتها لدى البعل تحصلت عليها من الخدين. وهى بذلك تضرب عصفورين بحجر واحد الاول اشباع غريزتها الملتهبة دائما والاخر ان تثبت لنفسها انها انثى بحق في مجتمع ينقسم الى فحل ومواطؤة وتغدو عملية التماهى بين قطبيه ميزانا لقدر كل منهما فيه فكلما كان الذكر ظاهر الفحالة كبر في اعين الجميع وبالمثل كلما كانت الانثى صالحة للتموضع اسفل الفحل عد

---

(٢) الخنزوانة: هي ان يشمخ بانفه من الكبر وفتح منخره ولهذا يقال (في انفه خنزوانة) - من (كتاب الفروق) ل ابى هلال العسكري - تحقيق د / احمد سليم الحمصى ص ٢٧٣ - الطبعة الاولى ١٩٩٤ - ١٤١٥ هـ - جروس برس - طرابلس / لبنان.
(٣) المليط والاملط من لاشعر له - من القاموس المحيط (ل الفيروز آبادى). (*)

ذلك دليلا ساطعا على فعاليتها في المجتمع ولذلك كان من شارات الشرف لدى الرجال قبل الاسلام ان تكون (تحته) عشر نسوان ورأينا من الاناث من خمسة أي استهلكت خمس فحول ومنذ قديم حق الرجل ضعف حق الانثى. ولا ينتطح عنزان في ان طلاقة الجو وحرارة الطقس تثيران غريزة التماس بين الرجل والمرأة لذلك نجد هذه الغريزة في البلاد البارة فاترة في حين انها في الاقاليم الحارة مشبوبة مشتعلة ومتوقدة - وليس مصادفة ان البلاد ذات الكثافة السكانية الرهيبة تمتاز بحرارة الجو في حين ان معدلات الولادة منخفضة في الاصقاع الباردة. تلك كانت الركائز التى توكأنا عليها في هذه الدراسة عن العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع المدينة / اثرب ابان زمن محمد وعهود خلفائه الاربعة وفى اعتقادنا انه مجتمع شديد الخطر (القدر) بالغ الاهمية من الضرورى بحثه من اقطاره كافة وشتى مناحيه لفهم كثير من الامور: تتربع على رأسها (النصوص) حتى يتسنى تأويلها التأويل الامثل وتفسيرها التفسير الاميز لانها انبثقت في حناياه وارتبطت بأوضاعه وتشابكت مع ظروفه واتصلت بموجباته وتعلقت بأحواله وتوثقت باكراهاته ومن ثم وترتيبا على ذلك ونتيجة له حملت بصماته والحق ان عجبى لا ينقضى ودهشتي لا تنفذ وحيرتي ممتدة ممن يعرضون عن التفرس في ذلك المجتمع والتحديق فيه وتمحيصه وتأمله وتفليته (٤) في دقيقه وعظيمه في صغيره وكبيره في نحيفه وغليظه في سمينه وهزيله خاصة من جانب الذين ينادون بـ)تاريخية النصوص) وبلزوم ربطها بأسباب نزولها ومناسبات ورود ها لانها تغدو دعوى بلا دليل كامل وقضية بلا حجية مقنعة وادعاء بلا برهان دامغ... الخ. ولكن عندما نضع ذلك المجتمع

تحت المجهر ونسلط الاضواء الكاشفة عليه ونبرزه ونقدمه كما رسمته كتب التراث ذاتها نكون بذلك قدمنا دلائل الثبوت على

---

(٤) في المعجم الوسيط ل مجمع اللغة العربية: افتلى القوم: نظر إليهم متأملا. (*)

افكارنا وطروحاتنا وساعتها سوف ينقمع المناوئ وينخنس المعارض ويتوارى المشاكس وينكسف المعاند. العلاقة بين الرجل والمراة في مجتمع المدينة / اثرب ابان حياة محمد وزمن خلفائه الاربعة من اهم معالم هذا المجمع الذى بمعرفة ابنائه تحققت الثورة التى فجرها محمد في القرن السابع الميلادى في منطقة الحجاز والتى تعد من اخطر الثورات التى شهدتها الانسانية منذ العصور الوسطى. وهو المجتمع الذى موضع تجربة تلك الثورة المظفرة وشيئا والذى يعتبره البعض النموذج الامثل والوحيد الذى شهده التاريخ منذ بدايته حتي يرث الله الارض وينادى بان تخذو المجتمعات كلها حذوه وتسير على منواله وتقتفي خطواته... الخ. ونحن لانصادر حق أي واحد في ان يعتقد ما يشاء وان يطالب - بالحسنى - بما يريد انما ندعو ونلح ان تجئ معرفته بما يروجه صحيحة وقائمة على اسس موضوعية خالية من شوائب الهوى والتحيز. وهذا الكتاب يضئ جانبا هاما في ذاك المجتمع: العلاقة بين الرجل والمراة - التى هي بلا مراء فاتحة معايير تقييم أي مجتمع وراس حيثيات الحكم عليه. اسسناه على اوثق المصادر التى تلقتها الامة بالقبول بل التجلة والتقدير الذى يبلغ في حق بعضها رتبة التقديس - (مثل كتب الصحاح الستة). فكل خبر أو واقعة وردت بين ثناياه اتبعناها بمصدرها بمنتهى الدقة لكى نقطع السبيل على أي خصومة باطلة. بيد انه إذا دهش القارئ أو صدم مما تحفل به صفحاته من نوازل واحداث لم يتعود على مطالعتها في كتابات التبجيل والتعظيم والتفخيم التى ولفها الكثيرون ومن بينهم اصحاب اسماء لوامع لها رنين صاخب ودوى زاعق فالتبعة تقع عليهم

وحدهم اما نحن فقد التزمنا المنهج العلمي الصارم الذى نحى عنه جانبا عوارض العاطفة والتعصب. بعد ان يفرغ القارئ من مطالعة الكتاب - والتى نرجو ان تكون متانية وغير عجلى وان يولى ما بين سطوره ومضمراته قدرا وفيرا من اهتمامه - سيبين له على الفور لا على التراخي ان الكتاب يساعده على استيعاب كثير من (النصوص) التى تمحورت على المرأة أو تناولت الرابطة بينها وبين الرجل أو حتى حومت حولهما في كل الاصعدة بلا استثناء. إذ ان المطالعة تعطيه فرشة وتمنحه خلفية هو في مسيس الاحتياج اليهما لفهم (النصوص) الذى خاطبت ابناء مجتمع عاشوا في القرون الوسطى في منطقة مغايرة تماما للمنطقة التى يعيش فيها القارئ. وفى مذهبنا انه يكفى للتصور وبالتالي للاقتناع. ولنضرب مثلا توضيحيا: عندما يصف شخص شخصا آخر لثالث فمهما كان وصافا دقيقا... الخ. فان التصور الذى يأخذه الثاني عن الثالث لا يقاس بما لو قدم له شريط فيديو يعرض احوال الاخير. كذلك عندما نقول ان مجتمع المدينة / اثرب في تلك الفترة مباين لمجتمعنا من كل المناحى فهذا القول يظل ناقصا وقاصرا ومبهما يحوطه الغموض ويلفه الضباب وتشمله العتمة ويعوزه التوضيح ويفتقر الى البيان ويحتاج الى الاظهار بخلاف ما لو اثبتنا ان نسوان ذلك المجتمع كن يحتلمن ويصرحن بذلك وكانت الواحدة منهن تملأ الدنيا صخبا لانها اكتشفت ان زوجها

عنين لا طاقة له على ركوبها - ووجد في ذلك المجتمع اغتصاب وان الصاحب الذى استأمنه اخوه على زوجه هجم عليها ليعافسها وان البائع ينتهز الفرصة المواتية ليحتضن الزبونة المليحة والخاطب لا يرى حرجا في ان يتحسس ساقى مخطوبته ليتأكد انها وعاء طيب للمفاخذة أو التخبؤ لرؤية الاجزاء المستورة منها لمعرفة مدى صلاحيتها للوطء ومن الممكن بصبصة الفتاة الحسناء في اقدس المشاعر والازمنة أو بصبصة

نسوة الاخرين في اثناء الفتح الاعظم أو التفرس في سوقهن (جمع ساق) في عز استعار معركة مصيرية أو مجامعة الزوجة رغم الايمان المغلظة بعدم الاقدام على ذلك أو في اوقات يحرم فيها الفعل أو الاختلاء بزوجة آخر ورؤيتها عارية ومباشرتها (دون المجامعة) بشهادة شهود عدول ومع ذلك يعفو الحاكم عنهما ولا حتى كلمة تأنيب مع ان الفاعل حصن (تزوج محصنة) عشرات الزوجات وعندما قام بعمله المنكر كان واليا على احد الامصار وآخر يدخل بعذراء فيجدها مفضوضة وغيره يتزوج بكرا فتلد بعد اربعة اشهر وكانت هناك مشكلة حارقة هي مشكلة (المغيبات) وهن الزوجات اللاتى يخرج ازواجهن للغزو والفتى الوسيم القسيم الذي تتعشقه نسوة يثرب وتتمناه احداهن وتنشد شعرا بصوت مرتفع: ليتها وذاك الشاب المليح يضمهما سرير وبينهما زجاجة خمر معتق فيسمعها الخليفة فيأمر بحلق شعر الفتى الجميل حلاوة فيتضاعف توله الاثر بيات به يجد الحاكم حلا سوى نفيه وتغريبه عن القرية كلها. وحليف احد البطون يتبع نساء ذلك الحى خاصة زوجات الشيوخ أو المرضى الضعاف حتى يضبط مرتين وفى كل مرة ياتي المولود شبيها له ومخالفا لسحنة الزوج - فيتلاعن الزوجان ولا تمس شعرة فيه. هذه مجرد امثلة وغيرها العشرات ولكل خبر سنده ولكل واقعة مصدرها... وهى مصادر لا ترقى إليها ذرة من شك ولا يمارى فيها الا المعاند اللجوج. نعود الى سياقة الحديث - الذى قطعته ضرورة ضرب الامثال: - عندما يحيط القارئ بذلك كله علما يغدو تصوره عن ذاك المجتمع مكتملا وواضحا كانما عاش بين جنباته وخالط افراده وقضى معهم حياته وعاين بباصرته احوالهم وبذلك تتحقق عدة مقاصد حيوية اهمها ثلاثة: الاول: ليحكم بنفسه على ذلك المجتمع: هل هو مثالي ونموذجى لم تر له البشرية شبيها ولا نظيرا منذ دبت الحياة على وجه الارض وحتى قيام الساعة ام لا. الثاني: تقديم العون الحقيقي لفهم النصوص فهما سديدا فعندما يطالع مثلا الوقائع الخاصة باللعان يستوعب المبنى والمعنى ولا يكتفى بالاول كما يفعل الكثيرون

- ولا مشاحة انه عندما ما لايقراها ياتي تصوره ل (اللعان) خاطئا. الثالث: وهو مترتب على المقصد الثاني وهو ترسيخ قاعدة (تاريخية النصوص) وربطها باسباب نزولها ومناسبات ورودها وارجاعها الى ظروف منشاها. وبذلك نكون قد قدمنا الحجج البواهر والبراهين السواطع والادلة الرواسخ على صحتها وثبوتها وهو ما كانت تفتقر إليه حتى الان. فإذا وفقنا الى الوصول لهذه القصود يكون الكتاب قد اتى بثمرته المرجوة. خليل عبد الكريم.

- ١ - مجتمع يثرب قبل الاسلام كان مجتمع يثرب قبل الاسلام مجتمعا اميا ساذجا ونعنى الوصف اللغوى لا الاصطلاحي (١) ولم تكن فيه مجالات ثقافية أو فنية تثرى الوجدان أو تصقله - باستثناء دائرة الشعر وهى ضيقة ومحدودة - كمجتمع مصر القديمة إذ كان الناس فيه مشغولين بامور متنوعة منها: النشاط الدينى البالغ التعقيد في المعابد وساحاتها وفنون العمارة والنحت والتصوير واقامة التماثيل والمسلات واللوحات الجدارية وفى العلوم وابرزها: الطب والرياضة والعلوم التطبيقية هذا بخلاف حرف المعيشة: الزراعة والتجارة والصناعة أو كمجتمع اليونان القديمة حيث كانت الصفوة مشغولة بالمحاورات الفلسفية والرياضيات والعامة تنصرف الى مشاهدة المسرحيات والاحتفاليات والمهر جانات والمسابقات الرياضية المتنوعة. في المجتمع الامي الساذج كمجتمع يثرب قبل اعلان محمد لرسالته تشغل العلاقة بين الرجل والمراة مساحة وسيعة لدى افراده خاصة مع حرارة الطقس وطلاقته وامتيازه بقدر من الجفاف مما يساعد على فزوزة (٢) هذا الضرب من النزوع (٣) لدى الجنسين.

وليس من قبيل المصادفة ان نجد لهذا النشاط في لغتهم كثيرا من المترادفات يلوكونها ويتداولونها بكثرة تشعرك بأنهم يجدون لذة ومتعة وهم يرددونها بينهم منها على سبيل المثال: المباضعة الملامسة المضاجعة المقارفة المفاخذة المباطنة المعافسة المجامعة المراودة المباشرة المخادنة المناكحة والمواقعة وهذه الكلمات اساسها الفعل الرباعي فاعل مفاعلة وهو يعنى اشتراك طرفين في الاتيان بالعمل مثل: المحاربة والمقاتلة والمصارعة... الخ. بخلاف مصادر اخرى مثل: الرفث واللمس والاتيان والركوب والاعتلاء والامتطاء والوطء وهذه جذرها ثلاثى: ركب لمس وطا اتى... الخ. وهذه الاخيرة تركز على دور الرجل وابرازه فهو الذى يرفث ويلمس ويأتى ويركب ويعتلى ويمتطى ويطا وهى انسب لذلك المجتمع الذكورى. ومن المعلوم ان اللغة هي التعبير الامثل عن حالة المجتمع التى تنبثق منه رقيا وانحطاطا وهى ابلغ دلالة وافصح ابانة من الملابس والمباني والمساكن ووسائل الانتقال. فعندما تحمل لغة عشرات الكلمات الدالة على الفعل الذى يمارس بين الرجل والمرأة فهذا يقطع بأنه (= الفعل) يحتل بؤرة اهتمام ذكور واناث ذلك المجتمع الذى افرز تلك اللغة. كان ذلك اذن هو المستوى الحضاري لـ)المجتمع اليثربي) وكان ذلك ايضا هو مركز انشغال بال اليثاربة رجالا ونسوة في الربع الاول من القرن السابع الميلادى.

وعندما هاجر محمد الى (يثرب) عاش في حنايا ذلك المجتمع واندمج فيه وحث الذين هاجروا قبله أو معه أو بعده على الاختلاط بأهله كما رأينا في (المؤاخاة) بين الوافدين الذين سماهم (المهاجرين) واليثاربة الذين سماهم (الانصار) تطبيقا لخطته التى اخذ ينفذها بدأب واحكام شديدين في قطع صلة اتباعه بالفترة السابقة ورميها في مربع النسيان وصبغ معتنقي دعوته بـ)الصبغة الاسلامية) بما في ذلك اسماء بعضهم أو كثير منهم والاماكن التى كانوا يعيشون فيها أو يمرون بها ولم يكتف بتغيير اسم اليثاربة (الاوس والخزرج) الى (الانصار) بل غير اسم قريتهم من (يثرب) الى (المدينة) وحذر من استعمال الاسم القديم وفرض جزاء على من يخطئ فينطق به حتى توارى واصبح ذكرى عابرة. ولم يكن محمد ملكا أو سلطانا ولذلك لم يؤثر عنه انه تعالى على مجتمع يثرب أو

نفر منه أو تهكم عليه بل اختلط بالفاعلين فيه من الدرجات كافة وعاشرهم معاشرة كريمة ومن ثم وبعبقريته الفذة احاط به وبخباياه وعرف على الفور لا على التراخي محط تفكير اليثاربة من الرجال والنسوان ونعنى به العلاقة بينهما وادرك ان الوافدين عليه سيغمرهم طوفانه خاصة وان المجتمع المكى الذى نشأ فيه غالبيتهم يتشابه ان لم يكن يتماثل حذوك القذة بالقذة - بالمجتمع اليثربي وكان الرباط فيه بين الجنسين ايضا على الدرجة عينها من التوقد والتوهج. من هنا حاول محمد معالجة هذا النسق الاجتماعي الراسخ بطرق شتى منها: التشجيع على الزواج أو النكاح - وهى تسمية لها مدلولها العميق خاصة في ذلك المجتمع الذى ابتدعها - تشجيعا يدعو الى الدهشة الوفيرة فهو مرة يقول لطالب الزواج (ابتغ ولو خاتما من حديد) ومرة اخرى يقول (زوجتك اياها بما معك من قرآن) (٤).

وعندما ياتي إليه احد صحابته يستعينه على اتمام نكاحه: (فيسأله: وكم اصدقت ؟ فقال: مائتي درهم يا رسول الله قال: سبحان الله لو كنتم تأخذون من بطن واد ما زدتم والله ما عندي ما اعينك به) (٥). وثورة محمد أو غضبه مردها ان ارتفاع المهور يحد من فرص. الزواج (النكاح) وبالقدر عينه يشجع على العلاقات المنحرفة التى قاومها محمد بكل طريقة. ولهذا نراه يتلو قرآنا يغلظ عقوبة الزنا وتجيئ مطابقة لمثيلتها في كتاب اليهود المقدس (التوراة) رجم المحصن وجلد غير المحصن مائة جلدة. وكان للقرآن في نفوس من دخلوا دين محمد رهبة شديدة ولاياته قداسة ما بعدها ولذلك سنجد انه في المشكلات العضال كان فصل الخطاب فيها ياتي عن طريق آيات يقرؤها محمد على الصحابة فما ان يسمعوها حتى يذعنوا لها وللحل الذى حملته على الفور ودون معارضة أو اقل قدر من التمرد منها: كيفية التصرف في اسارى معركة بدر الكبرى (اول معركة حاسمة مع صناديد مكة) وطريقة توزيع الغنائم فيها بعد ان اختلفوا عليها اختلافا كبيرا. ولقد حسم القرآن نزاعات متعددة بين اتباع محمد ولولاه لحدثت انشقاقات خطيرة بين صفوفهم مثل: مسالة المواريث وعلى الاخص ميراث المراة (اما وبنتا وزوجة...) ومثل الاصطدام الذى وقع بين الاوس والخزرج حول من تولى كبر حديث الافك حتى ان اثنين من كبارهم تبادلا عبارات الرمى بالنفاق (تهمة اشد لعنة من الكفر واقسى عقوبة فالمنافقون في الدرك الاسفل من النار كما في القرآن وهناك بعض المشكلات اقل اهمية - وايضا - حسمت بالايات القرآنية مثل سرقة الابيرق والظهار... الخ.

نعود لسياق الموضوع فنقول ان محمدا في سبيل علاج جريمة الزنا قرأ قرآنا حمل العقاب الصارم لكل من يقارب تلك العلاقة المحرمة لكل من طرفيها ولكنه عاد بعد حين وقال ان الآية التى نصت على رجم الزانى المحصن قد نسخت تلاوتها فحسب ولكن حكمها ظل سارى المفعول أي انها رفعت من المصحف فلم يعد المسلمون يجدونها مكتوبة فيه ولكنه / فرض واجب عليهم ان يطبقوه على المخالفين المرتكبين لها بدون هوادة. يقول عمر بن الخطاب كنا نقرا في القرآن (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البته) ثم نسخت قراءتها وبقى حكمها. ولم يكتف محمد بقراءة آيات من القرآن في شأن تحريم العلاقات الفالتة من قيد الزواج أو عقدة النكاح وعقاب من يقدم عليها بل هو نفسه اصدر احاديث تبشع تلك العلاقات وتنفر منها بل ومن مقدماتها بداية بالنظرة وكانت لاحاديث محمد قدسية

عند من اتبعه على ديانته وان كانت لا تصل الى مرتبه قداسة القرآن الا ان المسلمين احترموها وبجلوها واطاعوا ما تأمر به وانتهوا عما تنهى عنه لان القرآن قرن طاعة الله بطاعة محمد. وكان استعمال محمد لاحاديثه هو كسلاح يفل به شوكة العلاقات الجوانح اوضح ما يكون في معضلة اجتماعية من اعقد المشاكل الاجتماعية التى صادفته في مجتمع يثرب وهى (مشكلة المغيبات) وهن الزوجات اللاتى يشترك ازواجهن في الغزوات والسرايا والبعوث والتجسس وعمليات التصفية الجسدية لبعض الاعداء ولهدم الكعبات وبيوت العبادة والاصنام... الخ.

فهؤلاء الزوجات وغالبيتهن العظمى شابات كن يتشوقن الى الوطء والمفاخذة ابان غياب ازواجهن - ولم يكن الاسلام باحكامه المثالية قد تمكن بعد من النفوس لا في الرجال ولافى النسوان وفى الوقت نفسه لم يكن كل رجال يثرب أو شبابها يخرجون للغزو بل يبقى منهم المئات وليس عندهم ما يشغل اوقات فراغهم. وكما قلنا كان هذا الامر يستغرق جل اهتمامهم ومن ناحية ثالثة كان على محمد ان يضمن للخارج (في الغزو أو غيره) تغطية مسكنه وسلامة انائه حتى يرجع والا احجم الرجال عن الانخراط في الغزوات والسرايا والبعوث... خوفا على بيوتهم واحجام الرجال عن ذلك امر بالغ الخطورة لان الجانب الحربى أو العسكري من الجوانب التى لاغنى لمحمد عنها باى حال من الاحوال سواء لضمان الامان للدولة القرشية التى اقامها في يثرب أو لتنفيذ الخطة المرسومة المدروسة وهى السيطرة على شبه الجزيرة العربية كلها واذعانها لزعامة محمد وقيادته ولعل ذلك تحقق في العام التاسع الهجرى وهو ما عرف ب (عام الوفود). وسوف نرى عندما نتولى (مشكلة المغيبات) بالمدراسة والتوثيق ان احاديث محمد بشأنها مالت الى التشديد ومضاعفة العقاب مما يقطع بعمق تلك المشكلة وانها لم تكن امرا عارضا.

- ٢ - مجتمع الصحابة ان سنن الاجتماع ترفض ان تتغير الانساق الاجتماعية في مجتمع معين وخاصة تلك التى استمرت مئات السنين في بضعة اعوام قد تنجح دعوة في تهذيب عشرات من المحيطين بالداعية ولكن القاعدة الشعبية العريضة تظل محتفظة بانساقها وعاداتها ولا تتغير عندها الا إذا تغيرت ظروفها المادية مثل: طرق الانتاج وادواته ووسائله بل ان بعض الملتفين حول صاحب الدعوة تغلب عليهم اعرافهم وطبائعهم المركوزة في اعماق نفوسهم والتى شبوا وشابوا عليها قبل اتصالهم به أو اتصاله بهم خاصة تلك التى تتعلق بالنوازع الطبيعية وفي احيان كثيرة يفزعون الى الداعية معترفين بمقارفتهم لما نهى عنه وهو يتسم بالحلم وسعة الصدر وبعد النظر والفكر السديد والراى الصائب فيعرف ان الطبع غلاب وان النوازع البشرية لها هيمنتها فيغفر ويسامح ويتجاوز وينصح في رفق لانه يدرك انه حتى اللزيقون به بشر وانهم عاشوا غالبية عمرهم في مجتمع له موجبات معينة وانه من اعسر العسر التخلص منها ما بين عشية وضحاها - ولا يساق دفعا لذلك في حالتنا موضع البحث = ان

المجتمع اليثربي دخله عامل جديد وهو دراسة القرآن واحاديث محمد والذى يتولى الرد على هذا الدفع: كتب السير والتواريخ التى اخبرتنا ان الاشتغال بهذه العلوم اقتصر على عدد محدود من صحابة محمد: (في مسلم والبخاري عن انس بن مالك قال: جمع القرآن على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - اربعة كلهم من الانصار: ابى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وابو زيد قلت لانس: من أبو زيد ؟ قال: احد ابناء عمو متى) (٦) وحتى إذا اضيف إليهم (عثمان وعلى وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص) (٧) كان معنى ذلك ان مجموع من جمع أي حفظ القرآن تسع أو عشر انفس في حين ان عدد الصحابة كان مائة الف واربعة عشر الفا (قال أبو زرعة:... قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم ومائة الف واربعة عشر الفا ممن روى عنه وسمع منه قيل: يا ابا زرعة هؤلاء اين كانوا وسمعوا منه ؟ قال: اهل المدينة واهل مكة وما بينهما والاعراب ومن شهد حجة الوداع) (٨). فإذا كان عدد الصحابة مائة الف واربعة عشر الفا ولم يجمع القرآن منهم في حياة محمد سوى عشرة فقط - الا يؤيد ذلك وجهة نظرنا ؟ اما احاديث محمد فمن المتفق عليه ان من كان يجمعها اثنان فقط هما: أبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص والاخير كان يكتب. وحتى تكون لدى القارئ صورة صادقة عن هذا الامر نورد بعض الاخبار - الموثقة - في هذا السياق: ١ - (قال بعض الائمة: مات عبد الله بن مسعود قبل ان يختم القرآن) (٩). وعبد الله بن مسعود معدود بين علماء الصحابة وخاصة في مجال القرآن وعلومه ولذا كان مغضبا لاستبعاده من اللجنة التى كونها عثمان لنسخ (المصحف الامام) والتى ضمت زيد بن ثابت وكان ابن

مسعود يصيح متوجعا أو يتوجع صائحا (يا معشر المسلمين اعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد اسلمت وانه لفى صلب رجل كافر) (١٠). فإذا كان صحابي مثل ابن مسعود لم يختم القرآن فما بالك بغيره ! ! اما عن احاديث محمد: - ٢ - (قال أبو هريرة: انكم لتقولون ما للمهاجرين لا يحدثون هذه الاحاديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم وان اصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم ارضوهم والقيام عليها وانى كنت امرءا مسكينا الزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على مل ء بطني وكنت اكثر مجالسة رسول الله - ص - احضر إذا غابوا واحفظ إذا نسوا) (١١). وفى رواية: (كان المهاجرون يشغلهم الصفق في الاسواق (أي التجارة) والانصار العمل في الحيطان) أي زراعة كرومهم وبساتينهم) وفى رأينا انها ادق لانها تناسب حال الفريقين فالمهاجرون اصحاب تجارات والانصار اصحاب زراعات. هذه شهادة واحد من اعلام الصحابة تقطع بان المهاجرين كانوا في شغل بالمتاجرة والانصار تستغرق اوقاتهم امور الزراعة: فإذا كان هذا حال اعيان الصحابة فما هو حال عامتهم ؟ ولعل مما يكمل شهادة ابى هريرة الخبر الذى يذكر ان عمر بن الخطاب كان له جار من الانصار وكانا يتناوبان الاهتمام بارضيهما فيتولاهما احدهما يوما وينزل الاخر الى محمد اعتزل نساءه التسع فسارع الى ابلاغ عمر بذلك ففزع فزعا شديدا لان ابنته الكبرى حفصة كانت من بينهن ولم تكن ذات حظوة مثل التى نالتها ابنة ابى بكر:

---

٣ - (وعن ابن عباس - رضى الله عنه - عن عمر قال كنت انا وجار لى من الانصار في بنى امية بن زيد وهى من عوالي المدينة وكنا

نتناوب النزول على النبي - ص - ينزل يوما وانزل يوما فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره وإذا نزل عمل مثل ذلك فنزل صاحبي الانصاري يوم نوبته فضرب بابى ضربا شديدا فقال: اثم هو ؟ ففزعت فخرجت إليه فقال حدث امر عظيم... فدخلت على حفصة فإذا هي تبكى...) (١٢). فهذا هو عمر بن الخطاب وهو من (مجلس العشرة المبشرين بالجنة) الذى يشكل (مجلس شورى محمد) والذى حل محل (ملا قريش) الذى كان يحكم مدينة القداسة مكة قبل الاسلام كان يقضى نصف وقته في اشغاله الخاصة فما بالك بمن هو دونه رتبة واقل لزوقا بمحمد وابعد صلة منه ؟ ! ! وابنه عبد الله بن عمر له درجة رفيعة بين اصحاب محمد تحدثنا الاخبار انه استغرق اربعة اعوام كوامل ليحفظ سورة البقرة ولاشك انه كان يتمتع بما يسميه علماء النفس (الذاكرة الحرفية) وهى التى تحفظ النص الذى تسمعه أو تقرؤه حرفيا مثله في ذلك مثل باقى اقرانه لان المجتمعات الامية تعتمد على التلقى والحفظ لان وسيلة ايصال المعلومات أو العلوم هي المشافهة وهنا يبرز دور (الحافظة) أو الذاكرة الحافظة) ؟ حتى في ايامنا هذه نجد الامي يعتمد على ذاكرته اكثر من القارئ الكاتب الذى يعتمد على التدوين وليس معنى ذلك ان عبد الله بن عمر كان اميا ولكننا نتحدث عن المجتمع الذى نشأ فيه. اذن فما الذى جعل ابن عمر يستغرق اربعة اعوام ليحفظ سورة واحدة هي سورة البقرة في حين اننا نرى ونسمع عن اطفال دون العاشرة

يحفظون القران كله ! ! ! العلة في ذلك بلا مراء هي انهما كه في العناية بأعماله شأنه في ذلك شأن سائر المهاجرين الذين تحدث عنهم أبو هريرة فيما سلف. وهذا هو نص الحديث أو الخبر الذى نقل الينا استغراق عبد الله بن عمر - اربع سنوات ليجمع (= ليحفظ) سورة البقرة وحدها: ٤ - (عن ميمون ان ابن عمر - رضى الله عنه - تعلم سورة البقرة في اربع سنين) (١٣). هذه بعض الاخبار وكلها موثقة - قدمناها كامثلة فحسب تقطع بأن ما جاء به محمد من علوم كان تلقيها ودرسها وجمعها أو حفظها مقتصرا على عدد محدود من صحبه ومنحصرا داخل مسجده فضلا عن ان المدة التى قضاها في يثرب لا تزيد على عشرة اعوام الا ببضعة شهور وهى مدة قصيرة للغاية لا تكفي لتغيير اعراف القاعدة الشعبية العريقة وعاداتها في يثرب. ولذلك لم يكن مفاجأة ان تحفل دواوين السنة وكتب السير والتواريخ وعلوم القرآن مثل اسباب النزول والناسخ والمنسوخ وتفسير القرآن... الخ بكم هائل من اخبار عن علاقات غير مشروعة مثل: الاغتصاب والزنا والدخول على المغيبات وتجاوز الاوامر والنواهي الصريحة مثل الجماع في نهار رمضان وفى الاحرام في الحج واثناء حيض الزوجة أو استحاضتها. وتلك التى لا تصل الى حد اللامشروعية ولكنها تتنافى مع الحد الادنى من الشعور الانساني السوى مثل مجامعة جارية أو زوجة في ليلة وفاة زوجة اخرى وفضح الزوجة لزوجها العنين على رؤوس الاشهاد حتى عرفت القرية (يثرب) كلها بالامر وتصر على طلب الطلاق لانها لا

تطيق الصبر على المجامعة والمفاخذة ولا تضع في اعتبارها ان تظل معه ولو لمدة يسيرة عسى ان تكون عنته امرا عارضا أو راجعة لعامل نفسي قد يزول بعد قليل ! ! ! واعتراف امرأة أو اكثر انها رأت في الحلم زوجها ركبها وظل يدعكها حتى ارتوت وانزلت فما الحكم: هل تعتبر تلك جنابة فتغتسل منها ؟ ! ! واخرى تصيح بأعلى صوتها حتى

يسمعها من يسير في الطريق متمنية ان تغيب في احضان فتى جميل وبينهما قنينة خمر معتقة لتتضاعف لذتها وتزداد متعتها ! وثالثة يروق لها اجير زوجها فتر تمى بين ذراعيه ولا تتركه الا بعد ان يقضى لها وطرها فيكتشف زوجها ذلك فيشكوهما ! ورجل تأتيه امرأة تبتاع (تشترى) منه تمرا فيحضنها ويقبلها ! وآخر وفى المشاعر المقدسة ينتهز فرصة نوم امرأة فيعتليها غير عابئ بحرمة الزمان أو المكان. وثالث يأتمنه صاحبه على اهل بيته عند سفره ليراعيهم ويقضى حوائجهم فما ان يبعد حتى يهجم الصاحب على الزوجة منتويا اغتصابها ! ! ! ورابع يقابل امرأة كانت بغيا فتابت واقلعت فيراودها عن نفسها ! وفتى حسن الوجه جميل الطلعة فتن نساء يثرب فأمر به الحاكم فحلق شعر رأسه فازداد بهاء فتضاعف وله اليثر بيات به فنفاه. وهكذا وهكذا.

---

[٢٧]

عشرات الصور التى حملتها كتب تلقتها (امة الاسلام) بالقبول والتجلة أي لا مطعن عليها - تقطع بان (مجتمع يثرب) لم يتغير لا في قليل ولا كثير وان العلاقة بين الرجل والمراة هي علاقة ذكر وانثى وانها كانت المحور الذى يدور حوله ذلك المجتمع وان محمد بذل جهودا تفوق طاقة البشر ليتسامى ذلك المجتمع بها ولكن لرسوخ ذلك النسق الاجتماعي وتجذره وضربه حتى الاعماق فيه هذا من جانب - ولقصر المدة التى قضاها محمد بين حنباته من جانب - ظل ذلك المجتمع على حاله ولم يتغير الا بنسبة ضئيلة.

---

[٢٩]

- ٣ - المرأة في مجتمع يثرب ليس ادل على اهمية التماس بين الذكر والانثى في مجتمع يثرب من ان نورد امثلة لما كان يحدث في هذه الدائرة - في ذلك الوقت - من واقع اخبار موثقة نقلتها الينا كتب لاسبيل للطعن عليها بأى حال. ونبدأ بأبشع صورتين في هذا المجال: الاغتصاب والشروع فيه: - (عن أسباط بن نصر عن سماك بن علقمة بن وائل عن ابيه وائل بن حجر زعم ان امرأة وقع عليها رجل في سواد الصبح وهى تعمد الى المسجد فاستغاثت برجل مر عليها وفر صاحبها (أي الذى وقع عليها) ثم مر عليها قوم ذوو عدة فاستغاثت بهم فأدركوا الذى استغاثت به وسبقهم الاخر فجاءوا يقودونه إليها فقال: انما انا الذى اغثتك وذهب الاخر فأتوا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -... الخ) (١٤). وباقى القصة ان محمدا امر برجمه ولكن استيقظ ضمير الجاني (الفاعل الاصلى) فاعترف وبرئ الاخر الذى اغاثها.

---

[٣٠]

فهنا امراة تسعى لصلاة الفجر ولكن ذلك لم يمنع الرجل من اغتصابها ونرجح ان ما كان يساعد على سرعة المباشرة سواء في هذا الخبر أو غيره مما سوف نسطره انهم رجالا ونساءلم يكونوا يرتدون ملابس داخلية لانهم كانوا يجهلونها تماما خاصة السراويل ولم يكن يعرفها الا اقل القليل منهم. (حدثنا الحسن بن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سيرة قال: بينما نحن بـ)منى) مع عمر - رضى الله عنه - إذ امراة ضخمة على حمار تبكى قد كاد الناس ان يقتلوها من الزحمة عليها وهم يقولون لها: زنيت... زنيت. فلما انتهت

الى عمر - رضى الله عنه - قال: ما شأنك ان المراة ربما استكرهت ؟ فقالت: كنت امراة ثقيلة الراس وكان الله يرزقنى من صلا الليل فصليت ليلة ثم نمت والله ما ايقظنى الا رجل قد ركبني ثم نظرت إليه معقبا ما ادرى من هو من خلق الله - فقال عمر: لو قتلت هذه خشيت على الاخشبين النار - والاخشبان الجبلان المطبقان على مكة وهما أبو قبيس والاحمر) (١٥). امراة من قوامات الليل وفى اقدس الاماكن واقدس الازمان وتؤدى اقدس الشعائر كل ذلك لم يحل دون الوثوب عليها واغتصابها. - (وقال في رواية الكلبى ان رجلين انصاريا وثقفيا آخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينهما فكانا لا يفترقان فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بعض مغازيه وخرج معه الثقفى وخلف الانصاري في اهله وحاجته وكان يتعاهد اهل الثقفى فاقبل ذات يوم فابصر امراة صاحبه قد اغتسلت

وهى ناشرة شعرها فوقعت في نفسه فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها فذهب ليقبلها فوضعت كفها على وجهها فقبل ظاهر كفها ثم ندم واستحيا فأدبر راجعا فقالت: سبحان الله خنت امانتك وعصيت ربك ولم تصب حاجتك...) (١٦). هذا اليثربي لم يعبأ بمؤاخاة محمد بينه وبين الثقفى وانهما اصبحا كالاخوين لا يفترقان ولا ان الثقفى خرج مجاهدا في سبيل الله فما ان رأى زوجته قد اغتسلت ونشرت شعرها حتى نسى ذلك كله واقتحم عليها منزلها ناويا اغتصابها لولا انها كانت عفيفة فصدته ووبخته. هذا الخبر يؤكد ما ذكرناه من ان الانساق الاجتماعية المتمكنة في النفوس من اعسر العسير ان تزول في بضع سنين وبمجرد قراءة أو سماع نصوص ومواعظ. - (قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت آية (والذين إذا فعلوا فاحشة) في نبهان التمار اتته امرأة حسناء باع لها تمرا فضمها الى نفسه وقبلها ثم ندم على ذلك فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية) (١٧). هذا التمار (بائع التمور) انتهز فرصة خلوته بالمرأة الحسناء التى جاءت تعامله فهجم عليها واحتواها بين ذراعيه وقبلها ويبدو انها قاومته فاستحى من نفسه وندم على فعلته الفاحشة. - (عن علقمة والاسود عن عبد الله (بن مسعود) قال: جاء رجل الى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال يا رسول الله انى عالجت امرأة في اقصى المدينة وانى اصبت منها دون ان آتيها وانا هذا فاقض في ما شئت قال: فقال عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك فلم يرد عليه النبي - صلى الله عليه وسلم -

---

فانطلق الرجل فأتبعه رجلا ودعاه فتلا عليه الآية (ان الحسنات يذهبن السيئات) فقال: يا رسول الله هذا له خاصة ؟ قال: لا بل للناس كافة (١٨). ونذكر بما قلناه ان الداعية يصبر ويتسامح ويتجاوز ويفتح باب التوبة والانابة ويتلو على الرجل المخالف آية لا تقنطه بل تعطيه الرجاء مادام لم يقترف بما يوجب توقيع الحد عليه - لماذا ؟ لان محمدا يعرف ان هؤلاء سلخوا من عمرهم شطرا كبيرا في مجتمع تستعر فيه علاقة الذكر بالانثى والانثى بالذكر على السواء وان هذا النسق من السلوك لن يختفى في عقد من السنين ولا ان الفاعلين في ذاك المجتمع سيقلعون لمجرد سماع موعظة بليغة ! وتتكرر المخالفات من افراد ذلك المجتمع فلا يقابلها محمد الا بمزيد من سعة الصدر والعفو: - (حدثنا سليمان التميمي عن ابى عثمان النهدي عن ابن مسعود ان رجلا اصاب من امرأة قبلا فأتى النبي - ص - فذكر ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية (اقم الصلاة... الى اخر الآية) فقال الرجل الى هذه ؟ قال: لمن عمل بها من امتى) (١٩). ان

محمدا ادرك ان الجنوح مستمر وسلسلة الاخطاء والخطايا ممتدة وان القاعدة الشعبية العريقة واقعة لا محالة تحت سلطان الاعراف والقيم والتقاليد التي درجت وشبت وشابت عليها وان من الاصلح فتح باب التوبة فقرأ عليهم آية تخبرهم ان اقامة الصلاة والاتيان بالحسنات يمحوان تلك الآثام التى يمارسونها في سهولة ويسر باعتبار انها جزء من نمط الحياة الذى يحبونه.

- (عن عبد الله بن مغفل قال: لقى رجل امرأة كانت بغيا فجعل يداعبها حتى بسط يده إليها فقالت: مه ان الله قد اذهب الشرك فتولى فأصابه الحائط فشجه فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره فقال: انت عبد اراد بك خيرا وإذا اراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا) (٢٠). هذا الصحابي يداعب البغى السابقة ثم يبسط يده إليها بادئا بما في نفسه انه ينتهى بهما الى المواقعة ولكنها تصده صدا عنيفا وتذكره بان ذاك كان ايام الشرك فيؤوب خزيان حتى لا يبصر جدارا امامه فيشجه ولما ينهى الامر الى محمد لا يعنفه بل يرفق به ويعلمه ان الله اراد به خيرا. هذه بعض امثلة على ما كان يقع من حوادث اغتصاب أو شروع فيه ليس من بينها واحد مستخرج من مصدر مشكوك فيه أو (مضروب) أي مغموز فيه وهى تقطع بأن (المجتمع اليثربي) رغم وجود محمد بين ظهرانيه فإن نسق التصاق الذكر بالانثى ظل كما كان مشتعلا متوهجا. ولكن الذى يلفت النظر بشدة هو موقف محمد الذى اتسم بغاية الرفق والتسامح والعفو والتجاوز لانه ادرك بثاقب بصيرته النفاذة ان افراد ذلك المجتمع من المستحيل ان يتغير سلوكهم سريعا. ومن البديهى ان نذكر ان تلك الافعال لم تصل الى ارتكاب ما يستوجب توقيع الحد باستثناء واقعة اغتصاب المرأة التى كانت في طريقها لاداء صلاة الفجر إذ عفا عن الجاني لانه اكبر فيه شجاعته إذ تقدم طائعا مختارا معترفا بجرمه بعد ان رأى بريئا سوف يدفع ثمن فعلته الشنعاء. (وفقت مدرسة التحليل النفسي الى حد كبير في تفسير الاحلام... وقالت: ان الحلم هو دائما ارضاء لرغبة مكبوتة... فثمت رغبات

اخرى قد تتخذ من الحلم سبيلا وهميا الى ارضائها لانها لا تجد في عالم الواقع ما يرضيها) (٢١). اذن من اهم وظائف الحلم النفسية تعويض الحالم بما يفتقر إليه في الواقع... ويرى فرويد وهو يتكلم عن الاحلام وتفسيرها ان لكل حلم محتوى ظاهرا ومعنى خبيئا نسميه (الافكار الكامنة) وانه يجب التمييز بينهما وان ذلك لازم في عملية تأويل الاحلام (٢٢). الرغبة تتحول في الاحلام الى واقعة كما تتحول الافكار المستترة الى صور ذهنية في اغلب الاحوال (٢٣). وبعد هذا التمهيد نلقى نظرة على الاخبار الآتية: - (عن عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - انها اخبرت عروة بن الزبير راوي الحديث ان ام سليم ام بنى طلحة دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: يا رسول الله ان الله لا يستحى من الحق ارأيت المرأة ترى ما يرى الرجل... اتغتسل ؟ قال: نعم فقالت عائشة: اف لك اترى المرأة ذلك فالتفت إليها النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: تربت يمينك من اين يكون الشبه ؟) (٢٤). وفى رواية اخرى: - عن ام سليم - رضى الله عنها - قالت: كنت مجاورة ام سلمة - رضى الله عنها زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت: ام سليم: يا رسول الله ارأيت إذا رأت المرأة ان زوجها جامعها في المنام ان تغتسل ؟ فقالت ام سلمة: تربت يداك يا ام سليم فضحت النساء عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.....) (٢٥)

- اخرج ابن ابى شيبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان امراة يقال لها بسرة جاءت الى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالت: يا رسول الله احدانا ترى انها مع زوجها في المنام قال: إذا وجدت بللا فاغتسلي يا بسرة) (٢٦). الحديث الاول حديث ام سليم اخرجه احمد ومسلم والبيهقي والدارمى ونقله ابن قدامة في المغنى أي انه ثابت وموثق توثيقا مكينا والاخر حديث بسرة اخرجه ابن ابى شيبة في مصنفه ونقله عنه أبو حمزة الدمشقي في (الاسباب) وهما يدلان على ان احتلام النسوان في المجتمع اليثربي آنذاك الناتج عن رؤيتهن احلاما بان ازواجهن تفخذوهن في المنام مسألة لا يرقى إليها شك. وهذا يؤيد فكرتنا التى قلنا بها من ان اتصال الذكر والانثى كان لديهم من الشواغل الاثيرة حتى اللاتى لايجدن ذلك متحققا في واقع الحياة يرينه في الحلم. وقد ذكرنا فيما سلف ما يؤكده علماء التحليل النفساني من ان الحلم يؤدى دورا تعويضيا كبيرا بتحقيق الرغبات الكامنة المكبوتة التى لا تجد في الواقع ما يرويها ويشبعها ولم يقتصر الاحتلام على النسوان بل كان بعض الرجال يحتلم كان ذلك يحدث إذا اضطرته ظروف قاهرة للانفصال عن انثاه مما يقطع بان الاتصال بين الجنسين كان طقسا يمارسونه يوميا فإذا لم يتيسر لهم في اليقظة أي في الواقع رأوه في المنام على سبيل التعويض: - (قال رفاعة بن رفاعة بن مالك: غلبنى النوم فاحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل - كان ذلك ليلة غزوة بدر الكبرى) (٢٧). لقد كان حريا بهذا الصحابي ان يبيت مهموما بالمعركة التى تقرر ان

تدور رحاها في اليوم التالى وهو يعلم انها عركة فاصلة ولكن الطبع غلاب والعادة لها سلطانها. ولم تكن كل النساء اليثربيات يكتفين بالمفاخذة التعويضية التى تحدث في الاحلام بل كان بعضهن يمتلك حسا واقعيا لم يرض بما يراه أو حتى يحسه في الرؤية فكان يبحث عن الزواج أو النكاح بحثا دؤوبا وفى عجلة ولهفة وينق عن الشاب الجلد الذى يروى الظما ويعطى المتعة ويعرض عن الشيخ الكبير حتى لو كان ذامال مثل: سبيعة بنت الحارث الاسلمية كانت زوجة لسعد بن خولة من بنى عامر بن لؤى وكان ممن شهد بدرا فتوفى عنها في حجة الوداع فما ان طهرت من نفاسها حتى بادرت بالتزين والتجمل للخطاب انتظارا لاقبالهم عليها فدخل عليها ثلاثة هم: أبو السنابل بن يعكك وكهل وشاب فاختارت الشاب وفضلته وتفضيل الشاب ليس في حاجة الى تعليل: - (... فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن يعكك فقال لها: مالى اراك تجملت للخطاب ترجين (النكاح) فخطبها فابت ان تنكحه فخطبها رجلان: شاب وكهل فخطبت الى الشاب) (٢٨). وتراوحت الروايات في مدة الوضع بعد وفاة الزوج ما بين اسبوع الى ثلاثة اسابيع ولم يستغرق طهرها من النفاس اكثر من اسبوعين أي ان سبيعة تزوجت بعد ترملها بشهر أو اقل ولا تفسير لذلك الا الو له بالتماس مع الطرف الاخر. وواقعة اخرى عن ذوات النزعة الواعقية يحملها لنا الخبر الاتى: -

- (عن الربيع بن سبرة ان اباه حدثه انهم ساروا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع فقال: استمتعوا من هؤلاء

النساء والاستمتاع عندنا التزويج فعرضنا ذلك على النساء فابين الا ان يضرب بيننا وبينهن اجلا فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - افعلوا. فخرجت انا وابن عم لى معه برد ومعى برد وبرده اجود من بردى وانا اشب منه فاتينا امراة فاعجبها شبابى واعجبها برده فقالت: برد كبرده وكان الاجل بينى وبينها عشرا فبت عندها تلك الليلة. وتكملة الخبر تحريم زواج المتعة الى يوم القيامة (٢٩). سبيعة الاسلمية فور طهرها من نفاسها تتجمل وتتزين ويدخل عليها الخطاب يعاينونها وتعاينهم ثم تختار منهم الشاب وتذر الكهل الذى اهلك الدهر قوته والاخرى - صاحبة زواج المتعة - لا تعير برد الشيخ الكبير اهتماما رغم نفاسته وجودته وتفضل الشاب ذا البرد الحائل المستهلك إذ ماذا يغنى البرد الجيد عن صاحبه الكبير المتهالك ! ! ! ووقوع اختيار المراتين على الشابين مؤشر واضح على قوة نزعة التماس بين الذكر والانثى لديهن وهيمنته على وجدانهن وانه الهاجس الوحيد الذى يتمركز في بؤرة الشعور لان الاخبار لم تحدثنا ان السبب كان هو حسن خلق الشابين أو عمق تدينهما أو تضحيتهما في سبيل الدين أو لسابقتهما في الاسلام / للسبب في آن. ولعل من المناسب ان نذكر ان السبب في ان محمدا احل لاصحابه (زواج المتعة) هو ادراكه العميق لما كان يجرى داخل حنايا (مجتمع يثرب) وكان يهيمن على تفكير الفاعلين فيه من الجنسين فاحل هذا النوع من النشاط حتى يدرا به عنهم شرور

العلاقات المحرمة فهو في آخر المطاف (زواج) أو (نكاح) مشروع لاشبهة فيه ومما يؤيد ذلك تيسير ما يدفع في زواج المتعة من صداق أو سياق أو مهر مثل: بردة أو نعلين أو أو حفنة من تمر... ونحن نزكي رأى ابن عباس ان زواج المتعة ظل حلالا حتى حرمه عمر بن الخطاب ونعلل تحريم ابن الخطاب له هو تدفق السبايا والجوارى المجلوبات من البلاد المفتوحة والموطوءة على يثرب حتى شبع الرجال منهن ومن ثم لم يعد هناك مبرر ل (زواج أو نكاح المتعة) وسبق ان ذكرنا ان تغير الظروف المادية لدى مجتمع معين يؤدى بطريق الحتم واللزوم الى تغير انساقه الاجتماعية وعاداته واعرافه وافكاره بل وعقائده وعلى احسن الفروض تفسير تلك العقائد تفسيرا مختلفا. ولكن ماذا تفعل المرأة في مجتع يثرب إذا تزوجت من رجل لم يستطع ارواء ظمئها ؟ انها تشهر به وتعلن ذلك للقاصي والدانى للبعيد والقريب حتى تعلم القرية (يثرب) كلها بعنته وتلجأ لمحمد طالبة منه ان يخلصها من هذه (المصيبة) ولا تقول ذلك بصورة ملفوفة بأن تلمح لا بل انها تصيح مصرحة بذلك بأعلى صوتها وبطريقة خادشة تفزع حتى الرجال من الكهول: - عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظى وانا وابو بكر عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت: ان رفاعة طلقني البته وان عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وانما عنده مثل الهدبة واخذت هدبة من جلبابها وسعيد ابن العاص بالباب لم يؤذن له فقال: يا ابا بكر الا تنهى هذه عما تجهر به بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما زاد ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - على التبسم وقال:

كأنك تريدين ان ترجعي الى رفاعة... لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك) (٣٠). ورفاعة القرظى هو رفاعة بن السموءل والمرأة هي تمية بنت وهب. والخبر موثق اشد ما يكون التوثيق إذ اوردته عوالي دواوين السنة ولا يكاد يخلو منه كتاب من كتب الفقه في المذاهب كافة لانه انطوى على قاعدة فقهية هي (ذوق العسيلة): - وهو

دليل دامغ على ان مسألة الملامسة بين الجنسين في (مجتمع يثرب) مسألة هامة وملحة لدى اليثاربة رجالا ونسوة. وفى احيان اخرى كانت المرأة في ذلك المجتمع لا تكتفى بقدرة الرجل على الركوب والمباطنة وكفايته في المجامعة والمفاخذة بل كانت تشترط فيه ان يكون مليحا وضيئا حتى تكتمل لها المتعة اثناء الاعتلاء والامتطاء: - (امرأة قيل انها حبيبة بنت سهل الانصارية وقيل انها جميلة بنت سلول وقيل انها جميلة بنت ابى سلول وقيل بل انها اخت عبد الله بن ابى بن سلول تزوجت من قيس بن ثابت وهو قصير دميم ويبدو انها لم تعاينه قبل النكاح (الزواج) فما ان وقعت عيناها عليه حتى كرهته وحاولت ان تعاشره ولكن نفسها لم تطاوعها إذ مما لا شك فيه ان قبح خلقة احد الطرفين ودمامته يفسدان على الآخر متعته ولذته وبهجته فذهبت الى محمد وابلغته انها لا تشتكي من ابن ثابت في خلقه ودينه ولكنها لا تطيقه بغضا وتكره دمامته ولو لا مخافة الله لبصقت في وجهه

كلما دخل عليها وانها تريد فراقه لان رؤيته تصيبها بالغم والكآبة والابتئاس وكان اصدقها حائطا أي حديقة. وفى رواية حائطين فسألها محمد ان كانت على استعداد لترد عليه حديقته فسارعت تجيب: اردها وزيادة فاستدعى قيسا وفك ما بينهما من عقد النكاح وردت الحديقة) (٣١) ولأنه اول خلع في الاسلام بين زوج وزوجه نجده مسطورا في كتب المذاهب الفقهية كافة في الابواب التى تتناول النكاح والطلاق والخلع والظهار... هذه اليثربية تزوجت رجلا فاضلا لاعيب في دينه أو خلقه أو معاملته أو عشرته أو انفاقه على البيت ومع ذلك ابغضته وفزعت الى محمد مصرة على طلب الانفصال عنه لمجرد ان منظره كئيب يفقدها متعة التلاقي ونشوة التماس. وفى المقابل نرى ان ملاحة ابن واحد من الصحابة ووضاءته قد جنتا عليه إذ تعشقته نسوان ذلك المجتمع وتدلهن في حبه وتمنينه واخذن يصرحن بذلك في ابيات شعر: - (نصر بن الحجاج بن علاط السلمى كان من احسن الناس وجها ولمة وفى ليلة سمع عمر بن الخطاب امرأة تقول: الا سبيل الى خمر فأشربها: الا سبيل الى نصر بن حجاج وهذه المرأة هي الفريعة بنت همام ويقال: انها ام الحجاج بن يوسف الثقفى ولذلك قال له (للحجاج) عروة بن الزبير: يا ابن المتمنية. فنفى عمر نصرا من المدينة فأتى الشام فنزل على ابى الاعور السلمى

(له صحبة ومن شيعة معاوية ضد على) فهوته امرأته وعشقها (= نصر) وفطن أبو الاعور لذلك... فابتنى له قبة في اقصى الحى فكان بها واشتد ضناه بالمرأة كلفا بها حتى مات وسمى (المضنى) وضربت به الامثال) (٣٢). وفى رواية ان عمر بن الخطاب امر بحلق رأسه فازداد حسنا وجمالا فتضاعف توله اليثربيات به واصبحت كل يثربية تتمنى التماس به فنفاه ابن الخطاب عن يثرب (المدينة) ولا ذنب لنصر في ذلك فالجمال منحة من الله لا من صنعه هو والمرء يؤاخذ على ما جنت يداه ويسأل عما اقترف فنفى عمر له وتغريبه اياه لم يكن عدلا وليس في شرع الاسلام ما يسوغه أو يبرره - ونصر هذا ابوه صحابي بلا خلاف وكذا أبو الاعور السلمى (من رهطه وعشيرته) الذى نزل عليه ضيفا في منفاه صحابي ايضا وفى الاغلب الاعم ان المرأة ابى الاعور هي الاخرى كذلك ولم تذكر المصادر اسمها لنتأكد من ذلك ولكننا نقوله من باب الترجيح فهذه المجموعة التى تشكل ابطال القصة تمثل عينة ل (مجتمع يثرب) وما كان

يشغله في هذا المجال فلو لم تكن مسألة التلاقي بين الانثى والذكر ذات بال لما افتتنت اليثربيات بالفتى الجميل نصر ولما لاحقنه وتمنينه وقلن شعرا في ذلك حتى ارتفع الامر الى الحاكم فلا يجد خلاصا لهذه المشكلة التى ارقت عيون نسوة يثرب الا بنفيه منها. وتعج المصادر على اختلافها وتنوعها (احاديث تفسير اسباب نزول وورود ناسخ ومنسوخ فقه...) بصور عجيبة تؤكد ما نذهب إليه:

---

[٤٢]

- (عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء رجل الى النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ان امرأتي لا تمنع يد لامس قال: غربها قال: اخاف ان تتبعها نفسي قال: فاستمتع بها) (٣٣) وعبارة (لا تمنع يد لامس) واضحة لا تحتاج الى بيان ففى القرآن (أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا...) (٣٤، ٣٥) ومع ذلك فهذا الرجل اليثربي لم يأخذ بنصيحة محمد ان يغرب زوجته اليثربية التى لا طاقة لها بمنع يد لامس ويعلل ذلك بأنه يحبها ولا يطيق فراقها ولو فعل ذلك أي لو نفاها لتبعها أي لحق بها في منفاها ! ! ! ويثربية اخرى تظهر عليها علامات الاستجابة ليد من يلمسها ومنذ قديم حال هذا الصنف من النسوة لا يخفى على اليقظ: - (قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لو كنت راجما احدا بغير بينه لرجمت فلانة فقد ظهرت فيها الريبة في منطقها وهيئتها ومن يدخل عليها) (٣٦). في الحديث ان الشك يحوط تلك اليثربية من وجوه ثلاثة: كلامها مضمونا وطريقة وصوتا... الخ وملابسها وطريقة تزينها - وان لها عملاءها من اليثاربة افراد ذلك المجتمع الذين يشاركونها في افعالها ويبدو ان دائرة نشاط تلك ال (فلانة) اتسعت وتعمقت وانتشرت حتى اقلقت محمدا.

---

[٤٣]

- ٤ - مجتمع الذكور والاناث كانت نزعة معافسة النساء لدى رجال (المجتمع اليثربي) من القوة بحيث دفعتهم الى تحطيم الحواجز التى اقامتها (النصوص المقدسة) صراحة وبلا مواربة مثل: من يظاهر من امرأته ثم يعتليها قبل التكفير وآخر يركب زوجته وهى حائض أو مستحاضة وثالث يطؤها في نهار رمضان ورابع ينكح امرأة ابيه أو يعاشرها دون عقدة نكاح وبتعبير الخبر (يدخل عليها) والمملوك الذى يشرع في مفاخذة جارية سيده بادئا - كالعادة - بتقبيلها وقد يحدث العكس: المرأة تسعى الى اجير زوجها ليشبعها ويروى لها ظمأها لعجز زوجها عن ذلك... الخ كل هؤلاء ذكورا واناثا يعلمون علم اليقين ان الفعل الذى قارفوه حرمته عليهم الشريعة التى بلغها محمد ولكن نزعة التلاقي بالاخر تغلبهم وتقهرهم وتملك عليهم نفوسهم وعقولهم ووجد انهم وتعطل ملكة التفكير السديد عليهم فلا يرون في (النصوص المقدسة) الا قيودا تحول دون انطلاقهم: -

---

[٤٤]

- (اوس بن الصامت بن قيس الخزرجي الانصاري ظاهر من امرأته فوطئها قبل ان يكفر) (٣٧). وهذا رجل آخر يرتكب ذات المخالفة: - اخبرنا أبو سلمة ومحمد بن عبد الرحمن ان سلمة بن حجر البياضى جعل امرأته كظهر امه حتى يمضى رمضان فلما مضى نصف رمضان وقع عليها فاتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال اعتق

رقبة) (٣٨) فهذا الصحابي سلمة - اراد ان يتفرغ للعبادة في رمضان ولما كان يشك في قوة ارادته فقد ظاهر من امرأته طوال ذاك الشهر لكيلا يقربها حتى انصرام الشهر ولكنه لم يصبر اكثر من اسبوعين وفى ليلة النصف بدل ان يحيها بالصلاة والدعاء والذكر والتهجد... الخ وثب على امرأته فوطئها غير عابئ لا باليمين يمين الظهار لان نزعة التواصل مع الجنس الاخر غلابة قهارة تكتسح في طريقها العقود والمواثيق والايمان بل والنصوص نفسها. وهذا آخر لا يرعى للصيام حرمة ويسيطر عليه الدافع ويهيمن على نفسه وحواسه ويشل عقله فيسارع الى امرأته فيعتليها في نهار رمضان غير عابئ بحرمة الشهر وقدسيته ولا بالنصوص الناهية: - (عن حميد بن عبد الرحمن عن ابى هريرة قال: بينما نحن جلوس عند النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت قال: مالك ؟ قال: وقعت على امرأتي وانا صائم) (٣٩). ولا يقال دفعا لذلك ان الرجل كان صائما صيام تطوع لا صيام

رمضان والرد عليه انه لو كان كذلك لما اسرع الى محمد لظنه انه هلك لانه لو كان صيام تطوع لكان في مقدوره الاعادة كما ان بقية الحديث تقطع بوقوع الامتطاء في نهار رمضان. وهناك العديد من الاحاديث والاخبار التى تقطع بوقوع ملامسة الزوجات في نهار رمضان وهذا الخبر سقناه على سبيل المثال لا الحصر منعا من الاملال والاطالة. - (كان لزنباع الجذامي عبد يقال له (سندر) وجده يقبل جارية له فخصاه وجدعه فأتى سندر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأرسل الى زنباع وقال: من مثل به واحرق بالنار فهو حر وهو مولى الله عزوجل ورسوله واعتق سندر فقال له سندر: يا رسول الله اوص - بى فقال: اوصى بك كل مسلم فلما توفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اتى سندر الى ابى بكر فقال: احفظ في وصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعاله أبو بكر حتى توفى ثم اتى بعده الى عمر فقال عمر: ان شئت ان تقيم عندي اجريت عليك والا فانظر أي المواضع احب اليك فأكتب لك فاختار سندر مصر فكتب له الى عمرو بن العاص ان يحفظ فيه وصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما قدم الى عمرو بن العاص اقطعه ارضا واسعة ودارا فكان سندر يعيش فيها فلما مات قبضت في مال الله) (٤٠، ٤١). نزعة التماس بالجنس الاخر شملت الاحرار والعبيد ونرى ان محمدا قابل العبد الذى هم بالزنا بجارية سيده بالرفق واللين خاصة وان سيده عاقبه عقابا صارما. وفى المجتمع اليثربي كان النسوان والرجال على قدم المساواة في السعي الى الالتقاء بالاخر وفى الصور السابقة كان

الذكران هم اصحاب المبادرة ولكن الخبر الذى نسوقه بعد قليل يثبت ان النساء لم يكن اقل اقداما على ذلك ولم يحل الحياء الانثوى المعروف دون اتخاذ الخطوة الاولى لشدة النزعة: - (عن عبيد الله بن عتبة عن ابى هريرة وزيد بن خالد وشبل قالوا: جاء رجل الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: انشدك الله الا قضيت بيننا بكتاب الله فقال خصمه وكان افقه منه صدق واذن لى يا رسول الله ان اتكلم فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قل فقال: ان ابني هذا كان عسيفا (= اجيرا) على اهل هذا فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم وانى سألت رجالا من اهل العلم فأخبروني ان على ابني جلد مائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم فقال رسول الله - ص - والذى نفسي بيده لاقضين بينكم بكتاب الله المائة

شاة والخادم رد عليك وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ويا انيس اغد على امرأة هذا فسلها فان اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها) (٤٢، ٤٣). ولا يقال ان المرأة كانت مكرهة أي ان العسيف (الاجير) قد اكرهها لانها لو كانت كذلك لما امر محمد برجمها لان الاكراه يرفع الحد ولقالت لانيس ذلك عندما طلب منه محمد ان يذهب إليها ليسألها فان اعترفت رجمها اذن الفعل تم برضاها ولما كان شريكها عسيفا (اجيرا) كديها = لدى زوجها فلاشك انها هي التى اغرته على ذلك سواء بالقول أو بالحركات أو باللين... الخ لان الاجير لا يجرؤ على الاقتراب منها بدون ذلك الخلاصة ان الخطوة الاولى كانت من قبلها تحت تأثير النزعة المشبوبة لدى افراد ذلك المجتمع من الجنسين وفى بعض الاحيان كان ذلك الدافع من القوة بحيث يجبر صاحبه ليس على تحطيم (النصوص المقدسة) فحسب بل على تجاوز الحد الادنى من الالتزام الخلقى الذى ينبع من الفطرة السوية:

- (عن البراء بن عازب قال: مربى عمي الحارث بن عمر ومعه راية فقلت اين تريد ؟ فقال: بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى رجل نكح امرأة ابيه فأمر ان اضرب عنقه واخذ ماله) (٤٤، ٤٥). وتلك الواقعة تكررت وذكرت المصادر تكرارها ما يقطع بأنها كانت شائعة مألوفة. - (عن معاوية بن قرة عن ابيه قال: بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى رجل تزوج امرأة ابيه ان اضرب عنقه واصفى دمه وفى رواية اخرى واصفى ماله) (٤٦). وكان الزواج من ارملة الاب معروفا وليس منكرا في (المجتمع اليثربي) وهو ما يسمى في علم الاجتماع بـ)وراثة النساء) ثم جاء الاسلام فحرمه وسماه (فاحشة ومقتا وساء سبيلا) (٤٧). ولاشك ان الذين مارسوه سواء في هاتين النازلتين أو في غيرهما لا يجهلون ذلك ولكن يبدو ان تلك العادة كانت متمكنة وذات جذور ضاربة في الاعمال خاصة وانه يحقق الرى واطفاء الشهوة بلا مقابل للرجل: والمرأة تجد لدى الابن من الفتوة والشباب والقوة ما يعوضها عن ضعف ابيه وهرمه خاصة وان الرجال في ذلك المجتمع كانوا يحرصون على ان تكون الزوجة الثانية والثالثة... صغيرة السن ليمتع نفسه بها غير عابئ بالفارق في العمر الذى يصل في احيان كثيرة الى ثلاثين أو اربعين عاما فلما يموت تسعد بالالتقاء مع ابنه الذى قد يكون نديدا لها أو اصغر منها ليعطيها ما كانت محرومة منه ايام ابيه. والعقوبات الصوارم التى امر بها محمد: التصفية الجسدية واستصفاء المال تشى بأن المسألة لم تكن فردية بل جماعية أو جمعية أي

متكررة ومتواترة - ولكن في بعض الاحيان يكون طرفا العلاقة (= امرأة الاب والابن) اكثر دهاء فلا يعقدان نكاحا ولكن المباشرة بينها تتم في الخفاء والكتمان: - (قال ابى بن كعب: جاء رجل الى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: ان فلانا يدخل على امرأة ابيه فقال ابى: لو كنت انا لضربته بالسيف فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال: ما اغيرك يا ابى انى لاغير منك والله اغير منى) (٤٨). وواضح من سياق الحديث ان الرجل يدخل على زوجة ابيه دخولا مريبا وكانت تسعد بذلك بل ربما كانت تسعى إليه وتشجعه وان الريبة هي التى دفعت الشاكى الى تقديم شكواه الى محمد وهناك ملحظ على درجة كبيرة من الاهمية وهو ان الخبر لا يفهم منه ان الاب متوفى لعله كان مسافرا في تجارة أو سرية فانتهز الابن فرصة غيابه واتصل بزوجته الى هذا الحد بلغ طغيان وازع الاتصال بالاخر: نكاح ارملة الاب أو مخادنة زوجته عندما يولى ظهره ويغيب عن بيته !

! لم يفلت من هذا النزوع العارم نحو الاخر صحاب ذوو اسماء لوامع: - (عن خوات بن جبير بن النعمان عن ابيه قال: خرجت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوة فخرجت من خبائى فإذا بنسوة حولي فلبست حلة ثم اتيتهن فجلست اليهن اتحدث معهن فجاء النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا جبير ما يجلسك هنا ؟ قلت: يا رسول الله بعير لى شرد) (٤٩، ٥٠).

هذا الصحابي خارج في غزوة ومعه محمد أو هو مع محمد أي قريب منه ولكن كل ذلك يهون في سبيل الاتصال بالاخر فسارع بلبس حلة - لزوم التانق - واتى الى النسوة وجلس اليهن يسامر هن ويبادلهن اطراف الحديث الشهى لعل الحديث يجر وراءه ما هو اعمق ولما يضبطه محمد متلبسا وينكر عليه جلوسه ذاك لا يتورع ان يدعى ان سببا آخر هو الذى دفعه لذلك وهو شرود بعيره ومن البديهى ان ذلك لم يفت على فطنة محمد فكان كلما يراه يسأله: ما فعل بعيرك - ولم يحدثنا الخبر عما إذا كانت تلك النسوان صواحب جبيرهن زوجات الخارجين في الغزوة أو من الجيرة - ولعله مما لفت النظر انهن لم يجدن غضاضة في الجلوس مع جبير والتحدث معه مما يقطع بان ذلك المجتمع لم يكن مغلقا كما تحاول كتب المتأخرين ان تصفه - (حدثنا عمربن ابى قيس عن عاصم عن عكرمة عن حمنة بنت جحش انها كانت مستحاضة وكان زوجها يجامعها) (٥١). (وحمنة هذه اخت زينب بنت جحش التى تزوجها محمد بموجب آية من القرآن بعد ان كانت عند زيد ابنه ثم مولاه وحمنة كانت زوجا لمصعب بن عمير قتل عنها يوم احد فتزوجها طلحة بن عبيد الله) (٥٢). وكلاهما من اكابر الصحابة فالاول ارسله محمد قبل هجرته ليثرب ليقرئ اليثاربة القرآن ولذا اطلق عليه لقب (المقرئ) ولعب دوا بارزا في ادخال عدد من زعمائهم في دين محمد اما الاخر فهو من مجلس العشرة المبشرين بالجنة) وهو (مجلس شورى محمد) والصورة الاسلامية ل)ملا قريش) حاكم مدينة القداسة: مكة قبل الاسلام وسواء كان هذا ام ذاك فقد كان لا يجد غضاضة في مباطنة حمنة وهى مستحاضة.

اما عمر بن الخطاب فقد اقدم على ما هو أو عر (٥٣): - (عن عبد الحميد بن زيد بن الخطاب قال: كان لعمر بن الخطاب امرأة تكره الجماع فكان إذا اراد ان يأتيها اعتلت عليه بالحيض فوقع عليها فإذا هي صادقة فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمره ان يتصدق بخمس دينار) (٥٤). هنا حديث اسرى أي راويه من اسرة صاحب الخبر فعبد الحميد هو ابن اخى عمر ومعرفة ما إذا كانت المرأة حائضا ليست معضلة فالحيض له رائحة نفاذة ولون دمه متميز ولكن ابن الخطاب لم يستطع ان يكبح جموح شهوته حتى بعد ان تثبت من صدق زوجته وانها فعلا كانت حائضا. وهناك اخبار تدل على ان الدافع كان متوهجا لدى ابن الخطاب: - - (عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال يا رسول الله: هلكت قال: ما الذى اهلكك قال: حولت رحلى البارحة فلم يرد عليه شيئا فأوحى الله الى رسوله هذه الاية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم) اقبل وادبر واتق الدبر والحيضة) (٥٥، ٥٦، ٥٧). الخبر يدل على ان ابن الخطاب من الذين يتلذذون بالمرأة مستلقية أو مقبلة أو مدبرة والذين يفرشونها فرشا مؤثرا ولقد ايده محمد بآية من القرآن في اتيان المرأة مدبرة (مع تجنب الدبر) ومن ساعتها اصبحت رخصة لا لعمر وحده ولكن للمسلمين كافة ومن الملاحظ ان محمدا قال لابن الخطاب (اتق الحيضة) لانه جامع احدى زوجاته

وهى حائض كما ثبت في الخبر الذى سقناه فهو يلفت نظره لعدم تكرار ذلك مرة اخرى.

حتى وهو صائم لم يكن ابن الخطاب يملك نفسه أو يسيطر عليها: - (عن جابر ان عمر قال هششت فقبلت وانا صائم فقلت: يا رسول الله صنعت اليوم امرا عظيما قبلت وانا صائم فقال: ارأيت لو تمضمضت من الماء وانت صائم ؟. قلت لا بأس قال: فمه) (٥٨). والصائم يكون في حالة روحية سامية لان الصيام لله وهو الذى يجزى به كما اخبر محمد ومن ثم لا يفكر الصائم حتى في مقدمات الجماع مثل التقبيل لان مثل هذه الافعال تنافى روحانية الصوم ولكن يبدو ان ابن الخطاب كان له راى آخر وتفسير مغاير للصيام - ومما يؤكد ان دافع الالتقاء بالانثى كان متقدا عند ابن الخطاب هو الخبر الاتى الذى قبل ان نسطره نبدأ بمقدمة شارحة: عندما شرع الصيام كان يحرم على المسلم الاكل والجماع بعد ان ينام في الليل بمعنى انه إذا نام لا يحل له الطعام والشراب والاقتراب من الزوجة حتى يصبح ولكن اصحاب النوازع المتوهجة في الالتقاء بالجنس الاخر مثل ابن الخطاب لم يعبأوا بهذا التحريم وتجاوزوه: - (عن ابن عباس قال: ان الناس كانوا قبل ان ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن الناس فإذا نام احدهم لم يطعم ولم يشرب ولم يأت اهله حتى يفطر من القابلة فبلغنا ان عمر بن الخطاب نام ووجب عليه الصوم ووقع على اهله ثم جاء الى النبي - ص - فقال: اشكو الى الله واليك الذى صنعت ؟ قال: ما صنعت ؟ قال: انى سولت لى نفسي فوقعت على اهلي بعد ما نمت وانا اريد الصوم فزعموا ان النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ما كنت خليقا ان تفعل فنزل الكتاب: (احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) وفى رواية: قام

عمر بن الخطاب رضى الله عنه - فقال: يا رسول الله انى اردت من اهلي البارحة ما يريد الرجل من اهله فقالت: انها قد نامت فظننتها. تعتل فواقعتها فنزل في عمر (احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم). وفى رواية ثالثة: فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة قد سمر عنده فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت: انى قد نمت فقال: ما نمت ثم وقع بها) (٥٩، ٦٠، ٦١). هذا الخبر برواياته المختلفة التى حملتها مصادر موثوقة يثير عدة امور: أ - ان ابن الخطاب لا يتورع عن اتيان اهله سواء بعد نومه هو أو نوم الزوجة رغم انه يعلم تمام العلم ان ذلك منهى عنه ومحرم... الخ. ب - انه يرمى زوجه بالكذب عندما تخبره انها نامت ليحلل وقوعه عليها. ج - ان محمدا عاتبه على ذلك بقوله له (ما كنت خليقا ان تفعل). د - يقول عمر (انى اردت من اهلي البارحة ما يريد الرجل من اهله) وهى عبارة بالغة الدلالة وتفصح عن نظرة الرجل الى المرأة في ذلك المجتمع الامي فكل ما يريده منها هو المفاخذة فلا يريد منها: مسافرة لطيفة أو مشاورة في امر عام أو خاص... لانها في نظره مجرد ما عون يفرغ فيه شهوته. هـ - ان محمدا للمرة الثانية على التوالى يحل لعمر الورطة (٦٢) التى وقع فيها بأن يتلو آية قرانية وقد سبق ان رأينا ان ذلك حدث عندما حول

ابن الخطاب رحله واتى امرأته وهى مدبرة (مع تجنب الدبر). - (روى الشافعي في مسنده عن زينب بنت ابى سلمة انها ارتضعت من اسماء امرأة الزبير قالت: فكنت اراه ابا وكان يدخل على وانا امشط رأسي فيأخذ ببعض قرون رأسي ويقول اقبلي على) (٦٣). والزبير من اكابر الصحابة وهو زوج اسماء بنت ابى بكر اخت عائشة وزينب بنت ام سلمة احدى زوجات محمد ونظرا لان التقاء الذكر بالانثى والانثى بالذكر طقس يومى من الطقوس الاجتماعية المعتادة في (مجتمع يثرب) فقد اضطر محمد دفعا للحرج عن اصحابه ان يبيح لهم ان يسيروا في المسجد وهم جنب: - (عن زيد بن اسلم قال: كان اصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشون في المسجد وهم جنب) (٦٤). ولو كانت حالة الجنابة فردية لما صرح بذلك ولكن هذا التصريح يفيد ان الحالة كانت جماعية وبدرجة شديدة الكثافة بحيث لو حظر المشى في المسجد مع الجنابة لاحدث ارتباكا في صفوف الصحبة خاصة وان المسجد آنذاك كان يستعمل لغير الصلاة وذلك وراثة عن المسجد الحرام ودار الندوة قبل ظهور الاسلام (٦٥). وكانت بعض الوقائع على درجة معقولة من الجنوح: - (روى جابر قال:... فخطبت امرأة فكنت اتخبأ لها حتى رأيت ما دعاني الى نكاحها) (٦٦، ٦٧) ما الذى دفع جابر بن عبد الله وكان من المقربين لمحمد الى ان يتخبأ ليرى ما يدعوه الى نكاحها لان المرأة - على الاقل - كانت تكشف

وجهها وكفيها - اذن كان يريد ان يرى غيرهما مما لا تظهره المرأة الا في المنزل وهو ما يحتاج لمن يريد ان يطلع عليه الى التخبؤ لانها لو فطنت إليه لخبأته عنه هذه الاجزاء المستورة هي ما عبر عنها جابر: حتى رأيت (ما دعاني الى نكاحها) فلما اعجبته تزوجها. ولم تكن (التجاوزات) مقصورة على مشاهير الصحابة ممن ذكرنا بعضهم على سبيل المثال بل تعدتهم الى صحابيات معروفات. بل ومقربات الى محمد: - (عن عبد الرحمن بن ابى رافع ان ام هاني بنت ابى طالب خرجت متبرجة قد بدا قرطاها فقال لها عمر بن الخطاب: اعملي فان محمدا لا يغنى عنك شيئا فجاءت الى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته فقال رسول الله - ص -: ما بال اقوام يزعمون ان شفاعتي لا تنال اهل بيتى... تنال حاوحكم) (٦٨). حاوحكم قبيلتان. ان تبرج ام هانئ بنت ابى طالب اخت على وبنت عم محمد افزع عمر بن الخطاب حتى لفت نظرها الى ان محمدا لا يغنى عنها شيئا أي يوم الحساب فتشكوه الى محمد - فيصرح محمد بان له شفاعة اكيدة يوم القيامة وان اول من تنالهم هم اهل بيته أي بنى هاشم فهو لم ينف واقعة تبرجها ولم يخطئ ابن الخطاب في لفت نظرها الى ذلك ولكنه اخذ عليه انكاره شفاعته وانها ستشمل بنى هاشم وام هانئ منهم ان تبرج ام هانئ مغفور لها بالشفاعة المحمدية. ولكن ما الذى يدعو ام هانئ وهى من هي الى التبرج ؟ انها بلا شك ضواغط (مجتمع يثرب).

هذه الفصلة نفردها لصحابيين من ذوى الشهرة من ذوى الشهرة لكل منهما قصة تدخل في نطاق هذا الموضوع وقد اشتركا معا في الحكاية الاولى اما الاخرى فقد انفرد بها احدهما وهو الاعلى مكانة والاذيع صيتا والاكثر تقديرا. والخبران موثقان توثيقا محكما وقد وردا في العديد من الدواوين والكتب التى تكاد تبلغ حد القداسة ومن ثم لا يرقى إليها شك ولا تقرب منها ريبة. اما اولهما فهو المغيرة بن شعبة: فهو - بادئ ذى بدء من كتاب محمد أي الذين كانوا يكتبون له

الرسائل التى يمليها عليهم وكان لا يفعل ذلك الا من كان يحوز على الثقة بعد ان خان احدهم الامانة وارتد وهرب الى مكة وادعى انه كان يحرف الفاظ القرآن التى كان يمليها عليه محمد - واتصاف المغيرة بأنه من كتاب محمد مسألة متواترة جاءت في الكتب التى تناولت حياة الصحابة واحوالهم منها كتاب (اسد الغابة في معرفة الصحابة) (٦٩). - (قال المغيرة بن شعبة: حصنت تسعا وتسعين امرأة ما امسكت فيهن واحدة منهن واحدة منهن واحدة على حب ولكني احفظها لمنصبها وولدها فكنت استرضيهن بالباه شابا فلما ان شبت وضعفت عن الحركة استرضيهن بالعطية) (٧٠). والخبر صحيح في ان مجتمع يثرب الذى عاش فيه المغيرة ملازما لمحمد إذ عمل كاتبا له بعبارته لا يعبأ بالحب بين الرجل والمرأة ورغم سمو هذه العاطفة فلم يكن لها اقل موضع في ذاك المجتمع انما مدار العلاقة بين الطرفين ومحورها كان امرين: الباه أي قوة الجماع والمال فهما السبيل

لاسترضاء اناث ذاك المجتمع فإذا كنت شابا استطعت ان تروضهن وتسترضيهن بالباه اما ان كنت شيخا اضمحلت قوتك ووهنت حركتك فليس امامك الا الاموال والهدايا والعطايا ولعلنا لاحظنا: ان الباه جاء في المقام الاول بعبارة احد الفاعلين البارزين في ذلك المجتمع - وكل خبر نسوقه يؤكد الفكرة التى تتمحور عليها دراستنا هذه. ثم نعود الى سياق الخبر: نحن لا نعول كثيرا على ما اورده الجاحظ - مع تقديرنا البالغ له ولمكانته في الفكر والادب - لاننا انما نعتمد في هذه الدراسة على المصادر التراثية التى تلقتها الامة بالترحاب والتجلة والتى ربما تبلغ حد القداسة ومؤلفات الجاحظ ليست كذلك مع نفاستها الشديدة وذلك لامرين: أ - ربما دفعته نزعته الادبية الى المبالغة والتهويل. ب - ما عرف عنه من وجهة اعتزالية تجعله غير مقبول لدى اهل السنة والجماعة. نسطر ذلك حتى نقطع السبيل على أي فلحاس (٧١) حتى لا يصيح ناعقا أو ينعق صائحا ان مصادرنا هي كتب الادب والنوادر والامالي - مع تقديرنا لها جميعها وانها جزء من تراثنا الذى نعتز به - ويترك عشرات المصادر الاخرى ويتمسك بهذا المصدر اليتيم وإذا كان القارئ يستهول ان يكون المغيرة بن شعبة قد احصن تسعا وتسعين زوجة ويرى ان ذلك مبالغة فاضحة من الجاحظ فاننا نورد فيما يلى ما جاء به كتاب تراثي صاحبه من الذين اوخوا للصحابة وهو موضع تقدير من الامة وهو كتاب (الاستيعاب في معرفة الاصحاب) ل ابن عبد البر: - (قال: حدثنا سحنون عن ابن نافع قال: احصن المغيرة بن شعبة

ثلاثمائة امرأة في الاسلام قال ابن وضاح: غير ابن نافع يقول: الف امرأة) (٧٢) ولا شك ان في كلا الرقمين مبالغة وبذلك نكون قد ظلمنا الجاحظ إذ رميناه بالتهويل لان ما ذكره لا يبلغ ثلث الاول وعشر الاخر. ومع ذلك إذا سرنا في سبيل اتهام الجاحظ بالمبالغة وقلنا ان المغيرة احصن - في الاسلام وحده - نصف العدد أي خمسين امرأة فحسب الا يدل ذلك على ان نزعة التلاقي بالجنس الاخر أو بتعبير ابن شعبة ذاته (الباه) كانت في ذلك المجتمع متوقدة ومتوهجة بل ومشتعلة بصورة قل ان نرى لها مثيلا في المجتمعات الاخرى قديما وحديثا ! !. حكاية المغيرة مع ام جميل: يبدو ان الباه عند المغيرة بن شعبة كان مشبوبا بطريقة غير عادية فرغم انه تزوج ذلك العدد من الزوجات فانه لم يكتف بذلك بل: - (جعل يختلف الى امرأة من بنى هلال يقال لها ام جميل بنت محجن بن الافقم بن شعينة بن الهزم

وكان زوج من ثقيف يقال له الحجاج بن عتيك فبلغ ذلك ابا بكرة بن مسروح مولى النبي - صلى الله عليه وسلم - من مولدي ثقيف وشبل بن معبد بن عبيد البجلى ونافع بن الحارث بن كلدة الثقفى وزياد بن ابيه (الذى الحقه معاوية فيما بعد بابيه سفيان بن حرب. إ. هـ(فرصدوه حتى إذا دخلوا عليه هجموا عليه فإذا هما عريانان وهو متبطنها فخرجوا حتى اتوا عمر بن الخطاب فشهدوا عنده بما رأوا فقال عمر لابي موسى الاشعري: انى اريد ان ابعثك الى بلد قد عشش فيه الشيطان قال فاعنى بعدة من الانصار فبعث معه البراء بن مالك وعمران بن الحصين وابا نجيد الخزاعى وعوف بن وهب الخزاعى

فولاه البصرة وامره باشخاص المغيرة فاشخصه بعد قدومه بثلاث. فما صار الى عمر جمع بينه وبين الشهود فقال نافع بن الحارث: رأيته على بطن المرأة يحتفز عليها ورأيته يدخل ما معه ويخرجه كالميل في المكحلة ثم شهد شبل ابن معبد على شهادته ثم أبو بكرة ثم اقبل زياد رابعا فلما نظر إليه عمر قال: اما ارى فيه وجه رجل ارجو الا يرجم رجل من اصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على يده ولا يخزى بشهادته وكان المغيرة قدم من مصر فاسلم وشهد الحديبية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال زياد: رأيت منظرا قبيحا وسمعت نفسا عاليا وما ادرى اخالطها ام لا ويقال: لم يشهد بشئ. فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا فقال شبل: اتجلد شهود الحق وتبطل الحد فلما جلد أبو بكرة قال اشهد ان المغيرة زان فقال عمر: حدوه فقال على: ان جعلتها شهادة فارجم صاحبك فحلف أبو بكرة الا يكلم زيادا ابدا وكان اخاه لامه سمية ثم ان عمر ردهم الى مصرهم) (٧٣). اما عز الدين ابن الاثير الجزرى فيروى الواقعة باختصار: - (روى أبو عثمان النهدي قال: شهد أبو بكرة ونافع يعنى ابن علقمة وشبل بن معبد على المغيرة انهم نظروا إليه كما ينظرون الى المرود في المكحلة فجاء زياد (بن ابيه) فقال عمر: جاء رجل لا يشهد الا بالحق: رأيت مجلسا قبيحا وانتهازا - وفى رواية: رأيت استاتنبو ونفسا يعلو وساقين كأنهما اذنا حمار ولا اعلم وراء ذلك فجلدهم عمر) (٧٤). اما صاحب (الاستيعاب) فقد روى الواقعة في اكثر من موضع نكتفي باثنين:

في ترجمة ابى بكرة: (وكان من فضلاء الصحابة وهو الذي شهد على المغيرة بن شعبة فبت الشهادة وجلده عمر حد القذف إذ لم تتم الشهادة) (٧٥). وكذلك في ترجمة زياد بن ابى سفيان: - (فلما شهد على المغيرة مع اخيه ابى بكرة واخيه ابى نافع وشبل ابن معبد وحد عمر ثلاثتهم دونه إذ لم يقطع الشهادة وقطعوها) (٧٦). والخبر مشهور ورد في العديد من كتب السير والتواريخ ولا مطعن عليه - والمغيرة وقت حدوث الواقعة كان واليا للبصرة وهو بلا شك آنذاك قد جاوز الاربعين وقارب الخمسين (على اقل تقدير) ومع ذلك يقارف تلك الفعلة وعنده ولاشك اربع زوجات خلاف الاماء والجوارى وملك اليمين فكيف كان حاله وهو شاب قوى في العشرين من عمره ولم يراع انه حاكم المصر واحد الصحابة الذين يعتبرهم المسلمون قدوة واسوة ! ! ! والذى لا مرية فيه ان ابن الخطاب مارس نفوذه كخليفة لدى الشاهد الرابع زياد واوحى له بالعبارات التى قالها ان المغيرة من صحب محمد وانه سوف يرجم إذا شهد بذات شهادة الثلاثة الذين سبقوه فوعاها زياد جيدا خاصة وانه كان عاملا لعمر على بعض صدقات البصرة (٧٧) أي كان موظفا لدى عمر فشهد (=

زياد) شهادة مائعة (٧٨) فأفلت المغيرة من الرجم واقيم الحد على الشهود الثلاثة وعلى رأسهم أبو بكرة الذى قال في حقه الحسن البصري سيد التابعين (لم ينزل البصرة من الصحابة ممن سكنها افضل من عمران بن الحصين وابى بكرة) (٧٩). ومن الطريف ان زيادا لقى جزاءه على يد ابن الخطاب نفسه إذ عزله من عمله الذى ذكرناه

آنفا لان ابن الخطاب قدر ان الذى يلون شهادته لا يصعب عليه ان يغل في الصدقات (٨٠). لقد عز على عمر ان يرجم احد الصحابة بتهمة الزنا ولكن توقيع الحدود والحكم بالعدل والشرع اولى ليعرف المسلمون جميعهم وغيرهم ان الناس كلهم سواسية امام الاحكام لا فرق بينهم وحتى إذا سلمنا جدلا ان ما اتاه المغيرة مع ام جميل (التى لم يعبأ ان زوجها من قبيلته ثقيف) لا يبلغ حد الزنا ولكنه يشكل افعالا عديدة تحرمها الشريعة التى اعلنها محمد منها: دخول بيت مسلم في غيابه والخلوة بزوجته التعري في بيته وتعرية زوجته والنظر إليها عارية كما ولدتها امها والالتصاق بها والاستمتاع بها (دون ان يبلغ حد الجماع)... الخ. اليست كل هذه مخالفات جسيمة للشرع كانت توجب على ابن الخطاب ان يعزر المغيرة لم يفعل عمر شيئا من ذلك بل على العكس كافأ المغيرة إذ نقله من ولاية البصرة الى ولاية الكوفة (٨١)... ! ! هذه هي الواقعة التى اقترفها ابن شعبة: صحابي كان يكتب لمحمد أي ملازما له ومنذ دخوله الاسلام في صلح الحديبية وهو لزيق به ثم يوليه عمر على احد الامصار وكان في تلك الايام في نهاية مرحلة الكهولة وبداية الشيخوخة وتزوج عددا لا يحصى من الزوجات خلاف ملك اليمين ومع هذا يقدم على ذلك اليس هذا دليلا ناصعا على عرامة (٨٢) النزوع للآخر وحدته وشدته لدى افراد ذلك المجتمع ؟ ؟ اما الاخر فهو: عمر بن الخطاب الواقعة التى سنسطرها بعد قليل حدثت من ابن الخطاب وهو خليفة إذ كان يشعر بسخط (بنى هاشم) لتوليه وابى بكر من قبله الخلافة

وهما من فرعى (تيم وعدى) اقل مقاما بما لا يقاس في قريش منهم فخطب ابنة لعلى من فاطمة بنت محمد اراد بذلك ان يضرب عصفورين بحجر واحد أي يحقق هدفين: أ - ان يمتص غضب الهاشميين - رهط محمد واحق الناس بخلافته في ملكه كما صرحوا بذلك مرارا على السنة كبرائهم - وذلك بان يصهر الى على مرشحهم الرئيسي لتولى الخلافة. ب - ان يمتع نفسه بعد ان صار خليفة وحاكما على الامبراطورية الاسلامية التى بدأت تتخلق ملامحها وبعد ان تدفقت الغنائم من البلاد الموطوءة بحد السيف وطفق الصحاب يجنون الثمار الشهية والتى ما كانوا يحلمون بها من غزواتهم وفتوحاتهم. وهناك خبر مشهور (جعل رزقي تحت سيفى أو رمحي) وكانت لعلى (ابنة صغيرة تعد نديدة لحفيدات ابن الخطاب والهاشميات وهن من ذؤابة قريش أي ارستقراطيتها كن يتميزن بالجمال الفائق وقد رأينا منذ قليل كيف كانت ام هانئ (عمة ام كلثوم) تتبرج لتظهر جمالها حتى خاشنها عمر فشكته لابن عمها محمد... ونذكر بيت الشعر الذى يسجل وضاءة الهاشميات: (بعيدة مهوى القرط اما... لنوفل ابوها واما ل عبد مناف و الهاشميات يدخلن تحت دوحة (عبد مناف) لقى ابن الخطاب مناوأة من على وعقيل (عم البنت) والحسن والحسين (شقيقيها وحفيدي محمد الاثيرين) ولكن عمر اخذ يداور ويناور ويضغط واستثمر سلطانه كخليفة وحاكم

بأمره وبيده المنع والمنح وان له وحده تحديد الانصبة التى تخص كلا منهم من الغنائم الاسطورية

التى تدفقت على يثرب وادارت رؤوس الصحبة واولادهم وتلك الغنائم في واقع الامر هي ناتج عرق الفلاحين والعمال والشغيلة في البلاد التى وطئوها بقوة السلاح. ولم يكتف ابن الخطاب بذلك التلويح أو التلميح بل لجأ الى (ذهب المعز) فأغرى عليا وبنيه بصداق قدره اربعون الف درهم (٨٣) في الوقت الذى كان فيه يشجب ظاهرة المغالاة في المهور التى ضربت (المجتمع اليثربي) نتيجة وصول الاموال الوفيرة الى ايديهم فتغيرت احوالهم الاقتصادية ولكن العادة جرت على طول التاريخ ان ما يعظ الحاكم به (رعيته) شئ وما يفعله هو واهل بيته شئ مغاير تماما فلا بأس ان يقف ابن الخطاب على المنبر ويحث الرعية على عدم المغالاة في المهور ثم ينزل من على المنبر ويسوق الى على اربعين الف درهم نحلة أي مهرا لابنته الصغيرة الجميلة ام كلثوم ! ! ! واثمرت اساليب ابن الخطاب المتبانية وافلحت في شل معارضة عقيل والحسن والحسين واستطاع ان يفوز بزواج الطفلة الوضيئة: - (كان عمر قال لعلى: زوجنى يا ابا الحسن فإنى سمعت رسول الله - ص - يقول: كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري... فزوجه ام كلثوم. وفى رواية: ان عمر بن الخطاب خطب ام كلثوم فقال على: انها صغيرة فقال عمر: يا ابا الحسن زوجنيها فإنى ارصد من كرامتها مالا يرصدها احد فقال على انا ابعثها اليك فان رضيت فقد زوجتكها فبعثها إليه ببرد وقال لها: قولى له: هذا البرد الذى قلت لك فقالت ذلك لعمر فقال: قوله له قد رضيته رضى الله عنك ووضع يده على ساقها فكشفها فقالت له: اتفعل هذا ؟ لولا انك امير المؤمنين لكسرت انفك ثم خرجت حتى جاءت اباها واخبرته بالخبر وقالت: بعثتني الى

شيخ سوء ! فقال: مهلا يا بنية فانه زوجك) (٨٤). ان كشف عمر لساق البنت ثابت في عدة مصادر منها ما اورده ابن قدامة في موسوعتة الفقهية (المغنى): - (وقد روى عن سعيد عن سفيان عن سفيان عن عمرو بن دينار عن ابى جعفر قال: خطب عمر بن الخطاب ابنة على فذكر منها صغرا فقالوا انما ردك فعاوده فقال نرسل بها اليك تنظر إليها فكشف عن ساقيها فقالت: ارسل (أي ارخ ثوبي) لولا انك امير المؤمنين للطمت عينك) (٨٥) في ذلك المجتمع المتوقد بنزعة مخالطة الاخر كان الساق هو ميزان انوثة المرأة فان كان خدلجا (٨٦). دل ذلك على انها وعاء ممتاز للمباضعة والمفاخذة والمباطنة... وفى سيرة الصحابي بسر بن ارطأة وكان من شيعة معاوية الاوفياء وفعل بشيعة على الافاعيل ومن بينها اسر المسلمات وبيعهن جواري - في السوق وذلك لاول مرة في تاريخ الاسلام كان المشترون قبل الشراء يكشفون عن ساقى المرأة المسلمة قبل شرائها من اعوان بسر فان وجدوهما ممتلئتين اتموا الصفقة والافلا لان امتلاء الساقين كان علامة فارقة في هذا المضمار (٨٧). لذا لما ارسل على ابنته ام كلثوم الى خطيبها ابن الخطاب بادر بمعاينة ساقيها حتى يتأكد من جودة البضاعة أو الصنف ولما كانت البنت حرة وشريقة فامها فاطمة بنت محمد فقد استنكرت هذا الفعل من الخليفة وصاحت في وجهه (اتفعل هذا ؟ لولا انك امير المؤمنين لكسرت انفك وفى رواية (المغنى): للطمت عينك) واسرعت الى ابيها تشكو الشيخ الذى هو في سن جدها ومع ذلك

لم يتورع عن كشف ساقيها ! ! فارتبك على ولم يجد ما يرد به على سخطها الا قوله (مهلايا بنية انه زوجك)

ليهدئ من ثورتها... فهى لم تصبح زوجته إذ اين العقد ومتى انعقد واين الشاهدان والعلانية... الخ. واحسن الفروض ان امير المؤمنين كان خاطبا لم يتجاوز بعد مرحلة الخطبة وهنا لعل القارئ يسأل: هل يجوز للخاطب - حسب الشرع الذى حمله محمد الى الناس - ان يكشف عن ساقى مخطوبته ويعاينهما ؟ وهل يمكن لاى خاطب ان يقتدى بعمر في ذلك باعتباره من النجوم الذين إذا اقتدى بهم المسلم اهتدى ؟ ام هي من خواص عمر وحده دون المسلمين ؟ ام ان عمر اعتمد في ذلك على انه ممن شهد بدرا وبايع تحت الشجرة فمهما فعل أو تجاوز فان خطاياه مغفورة له خاصة وانه من (العشرة المبشرين بالجنة) الذين لا تضرهم البتة افعالهم ؟ ايا كان الامر فان الواقعتين اللتين صدرتا من اثنين من اكابر الصحابة... تقطع بتأكيد ما وثقناه من ان النزوع للآخر لدى افراد ذلك المجتمع ذكورا واناثا كان دفاقا ولذا فهو وضع الصحابة ذوى الرتب العوالي و (عامة المسلمين) في كفتين متساويتين لان الاولين في نهاية المطاف ما هم الا بشر تعتريهم كغيرهم النوازع الطبيعية وانهم لا يستطيعون الانفلات من اكراهات المجتمع الذى يحيون بين جنباته. من شدة ذلك الوازع على اعضاء (مجتمع يثرب) ان غطى على بصيرتهم فلم يفرقوا بين ما إذا كان المكان مما يجوز اظهاره فيه أو هل الميقات مناسب لابدائه ام هل المهمة الموكولة الى العضو تحتم عليه كتمانه ام لا.

لم يفرقوا بين ذلك كله بل انه غلبهم حتى في اشد الاماكن والاوقات قداسة وفى احرج الظروف وادقها واصعبها... في المعركة... أو ابان تبليغ رسالة حملها محمد لهم: - (من رواية يحيى بن عبد الله بن الحارث قال: لما دخل رسول الله - ص - مكة يوم الفتح قال سعد بن عبادة ما رأينا من نساء قريش ما يذكر من الجمال ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: هل رأيت بنات ابى امية بن المغيرة ؟ هل رأيت قريبة ؟ (*) هل رأيت هندا ؟ انك رأيتهن وقد اصبن بآبائهن. لم يشغل فتح مكة وهو مرحلة فاصلة في تاريخ فجر الاسلام الصحابي المعروف واحد زعماء الانصار وسيد الخزرج سعد بن عبادة ان يرنو ببصره متفحصا نسوان قريش ثم يصدر حكمه بعد ذلك انهن لسن على المستوى الذى عنهن من الجمال والوضاءة ولكن هذا الحكم لم يرض محمدا القرشي فيرد عليه انك رأيتهن وهن في حالة حداد على قتلاهن من الاباء والابناء ويضرب له امثلة على حسناوات قريش ومنهن هند بنت ابى امية المعروفة بأم سلمة احدى زوجاته التسع. - (عن عبد الله بن الزبير انه قال: والله لقد رأيتنى انظر الى خدم هند بنت عتبة) (٨٨، ٨٩). والزبير احد اعضاء (مجلس العشرة المبشرين بالجنة) أو (مجلس شورى محمد) الذى حل محل (ملا قريش) الذى كان يحكم مدينة القداسة مكة قبل الاسلام وابن عمة محمد واحد المقربين إليه ولايقال

(*) قريبة هي بنت ابى المغيرة وهند هي كذلك بنت ابى امية وهى ام سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم). (*)

دفعا لنظر الزبير الى خدم هند وصويحباتها انه كان يريد ان يتأكد من هروبهن فكان يكفيه ان يراهن مدبرات موليات ولا حاجة به بعد ذلك الى تصويب بصره الى سيقانهن أو خدمهن أو مواضع رباط سراويلهن أو خلا خيلهن وكان ذلك في عركة احد احدى المعارك الهامة في اول الاسلام. - (قال خارجة بن جزى العذري - يوم تبوك - سمعت رجلا يقول يا رسول الله ايباضع اهل الجنة ؟) (٩٠). لم تمنع اهوال معركة تبوك هذا الرجل ان يسأل عن المباضعة في الجنة أو لعله يريد ان يطمئن انه لو استشهد ودخل الجنة هل فيها مباضعة وهل يستمر يباضع الحورية التى ستكون من نصيبه كما يفعل حاليا في الدنيا مع زوجه أو زوجاته الاربع ! ! الا يقطع هذا الخبر ان مفاخذة النسوان كانت لديهم هاجسا ملحا يشغل عليهم حواسهم حتى في احرج الاوقات ؟ = (واردف (= محمد) الفضل بن العباس بن عبد المطلب وكان رجلا حسن الشعر ابيض وسيما فلما دفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرت به ظعن أي نسوان - غالبا - ما يكن في الهوادج - يجرين فطفق الفضل ينظر اليهن فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده على وجه الفضل فحول وجهه الى الشق الآخر فأخذ ينظر فحول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الشق الآخر على وجه الفضل فصرف وجهه من الشق الآخر) (٩١). - (عن عبد الله بن عباس قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله - ص - فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر

إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر) (٩٢). كان ذلك في حجة الوداع. وهكذا وفى اقدس المشاعر والاوقات يصر الفضل على ان يبصبص (٩٣) للحاجات ورغم ان محمدا (ابن عمه) حول وجهه اكثر من مرة الى الجهة الاخرى الا انه يعاود التطلع اليهن وعندما جاءت امرأة خثعمية تقول الروايات انها حسناء وضيئة الى محمد تستفتيه في امور دينها ينتهزها الفضل فرصة فيمعن النظر إليها وترد هي إليه التحية باحسن منها فتحدق ببصرها فيه ولا يرى محمدا بدا من فض هذا الاشتباك البصري فيلفت وجه الفضل الى الشق الاخر ولكن الاخير مصر على البصبصة (٩٣). ويبدو ان الخثعميات كن آنذاك يتميزن بالملاحة والحسن فهناك خثعمية هي اسماء بنت عميس تعاقب عليها خمسة ازواج من الصحابة من بينهم شقيقان هما جعفر وعلى ابنا ابى طالب والحمزة بن عبد المطلب وابو بكر بن ابى قحافة. وخبر الفضل والمرأة الخثعمية ورد في جل المصادر التراثية رفيعة الدرجة أي ان التشكيك فيه ضرب من المكابرة وهو مثل فاقع على طغيان تلك النزعة نزعة الالتقاء بالاخر من كلا الطرفين وانها غلابة وقهاره تهيمن على افراد ذاك المجتمع فتجعلهم يحطمون في طريقهم كل القيم فلا قدسية صحبة محمد ولا قدسية المكان ولا قدسية الزمان تقف حائلا في طريقهم. ولعل طغيان تلك النزعة لدى اولئك تتضح جلية في الاجابة عن السؤال الآتى: هل يجرؤ مسلم في ايامنا هذه مهما بلغ استهتاره على ان يبصبص الى النسوان

الحاجات في المشاعر المقدسة ؟ وهل تجرؤ حاجة مهما كانت درجة انحلالها - على ان تبادل حاجا نظرات مشبوبة في يوم عرفة أو في ايام منى ! ! - (عن يحيى بن كثير عن عطاء بن السائب قال: كنا عند عبد الله بن الحارث فقال: اتدرون لمن قال رسول الله - صلى

الله عليه وسلم -: (من كذب على فليتبوأ مقعده من النار) قال: قلنا: لا قال انما قال ذلك من قبل عبد الله بن ابى جذعة اتى ثقيفا بالطائف فقال: هذه حلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - امرني انا اتبوأ أي بيوتكم شئت فقالوا: هذه بيوتنا فتبوأ ايها شئت فانتظر سواد الليل فقال: اتبوأ أي نسائكم شئت فقالوا: ان عهدنا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحرم الزنا فسنرسل إليه فأرسلوا إليه رسولا فسار إليه وقدم عليه عند الظهر فقال: يا رسول الله انا رسول ثقيف اليك ان ابن ابى جذعة اتانا فقال: هذه حلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - امرني ان اتبوأ أي بيوتكم شئت فقلنا هذه بيوتنا فتبوأ ايها شئت فانتظر سواد الليل فقال: اتبوأ أي نسائكم شئت فقلنا: عهدنا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يحرم الزنا فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضبا شديدا لم أرأشد منه. ثم ارسل رجلين ليقتلاه ويحرقاه بالنار... ثم قال: لا اراكما تأتيناه الا وقد كفيتماه... فخرج ابن ابى جذعة في ليلة مطيرة ليقضى حاجته فلدغته حية... فأحرقه الرسولان) (٩٤). وفي رواية الطبراني في المعجم الكبير: - (فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعث رجلا من الانصار وقال له: اذهب الى فلان فاقتله واحرقه بالنار فانتهى إليه وقد مات وقبض فأمر به فنبش ثم احرقه بالنار) (٩٥).

هذا الصحابي الذى ائتمنه محمد وارسله في مهمة واعطاه حلته كعلامة - وهكذا كانوا يفعلون في تلك الايام - يخون الامانة ويحاول ان يستخدم العلامة لتحقيق غرضه الدنئ ويخبر ثقيفا ان محمدا اباح له نساءهم يختار منهن ما يحلو له ولكن الثقيفيين كانوا اذكى منه فلم ينخدعوا خاصة وان ما طلبه منهم هو زنا صراح من قبله وديوثة من جانبهم وعهدهم بمحمد انه يحرم ذلك ويحد فاعله فكيف يأمر به ! ! والعقاب الشديد الذى امر بإنزاله بابن ابى جذعة الذى بلغ حد تحريق رمته كان جزاء وفاقا. هكذا كان وصال النسوان ومخالطتهن في ذلك المجتمع وتلك كانت همينته على افراده حتى ان احدهم لا يتورع عن ان ينسب الى محمد ابشع تهمة وذلك في سبيل تحقيق رغبته.

- ٥ - الجنس في مجتمع يثرب لم تكن للزنا عقوبة قبل الاسلام توقعها السلطة الحاكمة خلا العقاب المعنوي الذى ينزله المجتمع بمرتكبه خاصة ان كانت المرأة الزانية من فخذ أو بطن معروف فيقوم هؤلاء بمحو عارهم بطريقتهم الذاتية اما الرجل الزانى فلا عقاب عليه بل كان البعض يتباهى بذلك ويعده من سمات الرجولة والفحولة وافتخر شعراؤهم بذلك. ولذا كانت العلاقات المحرمة متفشية في مجتمع يثرب والاحاديث والاخبار التى تحمل وقائع الزنا والملاعنة تقطع بذلك ولعل اشهرها: - (واقعة زنا ما عز والغامدية فلا يكاد يخلو ديوان من دواوين السنة أو كتاب من كتب الفقه منها وسوف نذكرها عندما ندرس مشكلة (المغيبات) التى اشرنا إليها في مقدمة هذه الدراسة لانه يتضح من سياق الحديث ان الغامدية كانت منهن. - (عن عمران بن حصين ان امرأة من جهينة اتت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهى حبلى من الزناء فقالت يا رسول الله انى اصبت حدا) (٩٦).

حتى الابكار المخدرات في البيوت طالتهن تلك النزعة العارمة التى سيطرت على (المجتمع اليثربي) فأكرهتهن لشدة عرامتها على التفريط في عذريتهن: - (قال بصرة بن اكثم تزوجت بكرا في سترها فدخلت عليها فإذا هي حبلى فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لها الصداق بما استحللت من فرجها والولد عبد لك فإذا ولدت فاجلدوها) (٩٧). الحديث ورد في واحد من الصحاح فلا مطعن فيه وصاحبة الواقعة على حد تعبير الخبر: بكر في سترها ومع ذلك سرت إليها نزعة التلاقي بالاخر بل اقتحمت عليها عقر سترها فأى قوة وسلطان ؟ ؟ واخرى: - (روى أبو داود باسناده ان رجلا يقال له نصر بن اكثم نكح امرأة فولدت لاربعة اشهر فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - لها الصداق بما استحل من فرجها وفى لفظ قال: الصداق بما استحللت من فرجها فإذا ولدت فاجلدوها) (٩٨). والدليل على ان الزوجة كانت بكرا ان محمدا امر بجلدها بعد ولادتها إذ لو كانت ثيبا لامر برجمها. وهى كسابقتها سيطر عليها هاجس التماس بالذكر المهيمن على مجتمعها فلم تعبأ بالتفريط في بكارتها والحاق العار بأهلها ! ! ! وهذه ثالثة الابكار: - (عن ابن عباس قال: تزوج رجل من الانصار امرأة من بلعجلان فدخل بها فبات عندها فلما اصبح قال: ما وجدتها عذراء فرفع شأنها

الى النبي - صلى الله عليه وسلم - فدعا الجارية (الشابة حديثه السن) فسألها فقالت: بلى كنت عذراء فأمر بهما فتلاعنا واعطاها المهر) (٩٩). حتى الجارية أي الشابة الحديثة السن التى بالكاد تخطت مرحلة الطفولة لم تصبر عن التماس بالذكر ولايهم ان بكارتها ستزول الى هذه الدرجة بلغ هذا الامر في ذلك المجتمع ! ! وهذه امثلة فحسب تقطع بأن الزنا كان منتشرا في المجتمع اليثربي ولم تفلت منه الشابات حديثات السن المخدرات في البيوت. عندما انتقل محمد الى حنايا مجتمع يثرب وعاش فيه وخالط اهله ادرك على الفور انه مثيل للمجتمع المكى وان الزنا فيه عملة متداولة ونسق اجتماعي شائع تمارسه حتى الفتيات داخل اسوار البيوت ورغم رقابة الاهل والجيرة فتوصل الى حل لهذه الظاهرة الاجتماعية وهو ان يتلو عليهم قرآنا يحرم الزنا ويصفه بأوصاف بشعة ويجعل له عقوبة (حدا) يختلف باختلاف الزانى فان كان محصنا يرجم وان كان غير محصن يجلد مائة ثم رفعت آية الرجم قراءة وبقيت حكما. ولكن شرط اثبات الزنا باربعة شهود يرون الميل في المكحلة صعب التحقيق خاصة وان العملية تتم - بداهة - في الستر وفى مكان مقفول الامر الذي يجعل اثباتها مستحيلا فأفزع هذا الشرط صحب محمد وخاصة الغيورين منهم الذين يتوقعون ان يجدوا رجالا يعتلون نساءهم فهل يذهبون لاحضار الشهود ؟ هنا يفلت الزانى والزوجة بعد ان يكونا قد استمتعا وقضيا وطرهما واطفآ شهوتيهما ! ! !

فإذا رماها بالزناء دون تلك البينة المستحيلة اقيم عليه الحد طبقا للآية: (والذين يرمون المحصنات) (١٠٠) وارقت هذه المشكلة حتى صحابة اكابر: - (فقال سعد بن عبادة: والله يا رسول الله انى لاعلم انها (= الاية) حق وانها من عند الله ولكني قد تعجبت: لو وجدت لكاعاقد تفخذها رجل... لم يكن لى ان اهيجه ولا احركه حتى آتى باربعة شهداء فوالله انى لآتى بهم حتى يقضى حاجته... فما لبثوا يسيرا حتى جاء هلال بن امية من ارضه عشيا فوجد عند اهله رجلا فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى اصبح وغدا على رسول الله فقال: انى جئت اهلي عشيا فوجدت عندها رجلا فرأيت بعينى

وسمعت بأذنى فكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما جاء به واشتد عليه) (١٠١، ١٠٢، ١٠٣). بداية لم يستنكر سعد بن عبادة وهو من هو ان يجد رجلا مع امرأته بل ناقش الاية باعتبار ان ذلك امر جائز الورود ثم ان هلال بن امية من اعيان الصحابة ومن اغنياء الانصار وفى الخبر انه كان كان عائدا من ارضه (حيطانه وكرومه وبساتينه ونخيله... الخ). ومع ذلك كانت تخونه زوجته الامر الذى يدل على انتشار تلك الظاهرة في عوالي المجتمع اليثربي واسافله ويفسر لنا لماذا كانت الشابة حديثة السن تفعل ذلك لانها كانت ترى بعينها امها وزوجات ابيها وعماتها وخالاتها يفعلن ذلك... ونعود الى سياق الخبر الذى انتهى بعبارة (فكره رسول الله - ص - ما جاء به أي هلال واشتد عليه) ووجه الشدة على محمد انه يعلم ان هلالا صادق فيما حدث به وان المرأة خؤون ولكن يرى ابن امية خاليا من البينة أو الشهود الاربعة... ومعنى ذلك جلده ثمانين جلدة (على ظهره) وتخرج له زوجتة وشريكها لسانيهما شماتة ! ! !

وهى صورة مأساوية ومن هنا كما ورد في الحديث (اشتد على محمد). ولكن كما رأينا فيما سلف عندما تتأزم المشكلات ويقع كبراء الصحابة في ورطة يسعفهم محمد بالحل بأن يتلو عليهم آيات من القرآن تأتى بالفرج بعد الشدة والسعة بعد الضيق إذ بعد قليل تلا عليهم آيات الملاعنة أو اللعان وهى السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة من سورة النور. ولم تكن زوجة هلال هي الوحيدة في ذلك بل لان الظاهرة منتشرة فاننا نقرأ عن زوجات اخريات لاعنهن ازواجهن وسبق ان قرأنا خبر عذراء بلعجلان المتلاعنة: - (هناك انصاري آخر هو عويمر بن ابيض العجلاني دخل بيته فوجد رجلا ممتطيا زوجته فرفع الامر الى محمد وتلاعنا امامه (١٠٤). - (قال الحافظ ابن حجر: اختلف الائمة في هذه المواضع فمنهم من رجح انها (آيات اللعان) نزلت في شأن عويمر (صاحب الخبر الاخير) ومنهم من رجح انها نزلت في شأن هلال (صاحب الخبر الاول) ومنهم من يجمع بينهما) (١٠٥). وسواء كانت آيات اللعان نزلت في شأن هلال أو في شأن عويمر فالذي لاشك فيه ان زوجتيهما قد زنتا وخانتاهما لان بقية الخبرين: ان الولدين جاءا اشبه بالزانيين والزوجتان صحابيتان بل ان احداهما وهى زوجة هلال خاطبت محمدا في واقعة سابقة وخاطبها. وخبرا زناء الصحابيتين زوجتى الصحابيين هلال وهو من

المشهورين وعويمر لا يخلو منهما كتاب من كتب التفسير ولا مؤلف في الفقه على جميع المذاهب لان هاتين الواقعتين كانتا السبب في تشريع اللعان أو الملاعنة بين الزوجين فكتب التفسير تتحدث عن اللعان عند تفسير آياته وكتب اسباب النزول تورد المناسبتين وكتب الفقه عند شرح اللعان وشروطه وموجباته وآثاره (١٠٦) والذى دفع الصحابيتين زوجتى الصحابيين هلال وعويمر الى الزنا معروف ومنتشر بين طبقات ذلك المجتمع كافة إذ لم تكن الخيانة بدافع الحاجة إذ لم يؤثر عن هلال أو عويمر الفاقة والعوزبل العكس هو الصحيح فقد ذكرنا ان هلالا كان صاحب بساتين وان عشية واقعة الخيانة كان راجعا من حيطانه - ولا بسبب الانتقام من الزوجين لانهما كانا يخادنان غيرهما من النسوان اما إذا كان ذلك بدافع المتعة ومتعة التماس بالذكر التى كانت طاغية على الاناث في ذلك المجتمع فقد كان هلال بن امية كما وصفته زوجته لمحمد عند تخلفه دون عذر في غزوة تبوك بقولها (انه والله ما به حركة الى شئ) (١٠٧) عند ما طلب منها محمد الا يقترب منها وتلك العبارة

كناية عن عجز زوجها المطلق عن المجامعة أو بتعبير صحابية اخرى: (ان ما معه مثل هدبة الثوب !). ذلك ان هلال بن امية من الثلاثة الذين خلفوا عن محمد في غزوة تبوك فأمر تابعيه المسلمين باعتزالهم حتى زوجاتهم ولاشك ان محمدا كان يدرك اهمية اعتزال المخلفين عن زوجاتهم ومدى وقع ذلك عليهم وتأثيره في نفوسهم لانه سيحرمهم من الطقس اليومي الذى دأب افراد ذاك المجتمع على ممارسته ذكورا واناثا حتى ولو بطريقة غير مشروعة بل ولو ادى الى ان تفقد الفتاة بكارتها ! ! ! فجاءت زوج هلال بعد امر الاعتزال الى محمد تستأذنه في خدمة

(= هلال) لانه شيخ كبير لا يقدر على خدمة نفسه فأذن لها بالخدمة بشرط عدم الملامسة فردت على محمد بتلك العبارة... اذن كان من البديهى ان تبحث تلك الزوجة عن الشاب الفتى العفى الذى كله حركة وشدة ليروى ظمأها ويعوضها عن حرمانها وعن هرم زوجها. اما الصحابي الاخر الذى خانته زوجه: عويمر بن ابيض العجلاني فكما وصفه الحديث الذى اخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (مصفرا قليل اللحم) كناية عن الضعف والمرض فكيف لا تبحث للصاحبتين زوجتى هلال وعويمر لخيانة الزوجين وهو ذاته المسيطر على افراد ذلك المجتمع. وفى الحالتين جاء المولود شبيها بالشريك الخدين أو الخليل وهو ما يقطع بزناء الزوجتين. ومن طريف ما يذكر ان هذا الشريك في الحالتين هو الصحابي شريك بن سحماء وهو رجل مكتمل الرجولة ظاهر الفحولة فقد شهد مع ابية عركة احد (١٠٨) التى وقعت في السنة الثانية والملاعنة في التاسعة أي خلال هذه السنوات السبع اكتملت رجولته وتتامت فحولته واوردت الاخبار نقطة هامة وهى انه بلوى من بلى ولكنه كان حليفا للانصار (١٠٩، ١١٠). أي يعرف احوالهم ومداخلهم ومخارجهم وعلى خلطة تامة بهم وظروف نسوانهم ومن الذى زوجها شيخ ليس به حركة للمفاخذة ومن التى زوجها مصفر قليل اللحم أي ضعيف مريض لا طاقة لديه للمباطنة... من اجل هذا تلاقت رغبته مع رغبتيهما لان الدافع لديهم جميعا وهم ابناء وبنات المجتمع اليثربي عارم ومتوقد.

- ٦ - مشكلة (المغيبات) - (جميع ما غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنفسه سبعا وعشرين غزوة... وكانت بعوثه وسراياه - صلى الله عليه وسلم - ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية) (١١١). وكان عدد السرية أو البعث أو الغزوة يتراوح ما بين افراد وعشرة آلاف كما في فتح مكة (١١٢). ولم يكن تابعو محمد كلهم يخرجون في السرايا والغزوات والبعوث بل تبقى الغالبية العظمى وتظل بيوت الخارجين مكشوفة ورغبة التماس بين نسائهم والقاعدين أو المخلفين على ما وصفنا لذا غدت هذه مشكلة اجتماعية حارقة وهى (مشكلة المغيبات) وهن اللائى غاب عنهن ازواجهن. كان على محمد ان يواجهها بحسم لضرورة توالى السرايا والغزوات التى هي ضمان بالغ الاهمية للدين الذى جاء به والدولة القرشية حلم اجداده وآبائه التى اقامها في يثرب وبلغت احصائية ابن هشام في السيرة النبوية خمسا وستين في عشر سنين أي خمسين يوما

على وجه التقريب لكل غزوة أو سرية أو بعث ومن المستحيل على محمد ان يكف عن ارسالها وبصورة منتظمة تحصينا لدينه وتثبيتا لدولته التى وضع حجر اساسها جده الاعلى قصى بن كلاب (١١٣). وكان عليه من جانب آخر ان يضمن لجنوده الخارجين في الغزوات والسرايا تغطية مواعينهم وستر بيوتهم وصيانة اعراضهم وعدم انفلات (المغيبات) بعد مبارحتهم يثرب / المدينة خاصة ان هناك من هم على استعداد كامل للالتقاء بهن. من اجل هذا قابل محمد (مشكلة المغيبات) بحزم وصرامة شديدين واصدر بشأنها احاديث توقع الرهبة البالغة في نفس كل من يقترب مجرد اقتراب من هؤلاء (المغيبات) المتعطشات وقلنا ان احاديثه لها قدسية كبيرة لدى اتباعه ولو انها تجئ في الرتبة التالية للقرآن: - - (عن سليمان بن بريدة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة امهاتهم ما من رجل يخالف الى امرأة رجل من المجاهدين الا وقف يوم القيامة فقال: هذا خانك في اهلك فخذ من عمله ما بدالك فما ظنكم) (١١٤). في هذا الحديث يسوى محمد بين حرمة الام وحرمة المغيبة أي من يزنى بزوجة الخارج فكأنما زنى بأمه ومن يفعل ذلك يفضح علانية على رؤوس الاشهاد يوم القيامة ويمكن للخارج اقتصاصا منه ان يضع يده على جميع حسناته ! ! وهى عقوبات صوارم قصد منها معالجة المشكلة بل القضاء عليها ولكن هل افلحت في ذلك ام ان النزعة الغلابة لدى الطرفين ظلت كما هي هذا ما سوف نراه.

- (في حديث على - رضى الله عنه - قال يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:... من آذى مجاهدا في اهله فمأواه النار لا يخرجه منها الا شفاعة المجاهد لله ان فعل ذلك (١١٥). هنا تتساوى جريمة الزنا بزوجة الخارج في غزوة أو سرية بالكبائر التى تخلد مرتكبها في النار لان احتمال شفاعة الخارج للزاني مع زوجته منعدم تماما. - (مثل الذى يجلس على فراش المغيبة مثل الذى ينهشه اسود أي ثعبان من اساود يوم القيامة) (١١٦، ١١٧). ان صدور هذه الاحاديث الباترة كحد السيف يقطع بأن المشكلة متفاقمة وتزداد اتساعا ولا توجد في الافق بادرة حل لانهائها كما يتضح مما يلى: - (عن جابر بن سمرة قال: بعد رجم ما عز بن مالك (صاحب الغامدية التى يفهم من سياق الحديث انها كانت احدى المغيبات) خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: اكلما نفرنا في سبيل الله عزوجل خلف احدهم نبيبا كنبيب التيس يمنح احداهن الكثبة اما والله ان يمكني الله من احد منهم الا نكلته عنهن) (١١٨) والنبيب: الصياح والتيس ذكر الماعز. والحديث يصور بعبارات بليغة احوال القاعدين الذين يحومون حول المغيبات وتشبيهه لهم بالتيوس التى تصيح اغراء لاناث الماعز تشبيه مستقى من البيئة. وهو (= الحديث) يدل على ان المشكلة لم تكن فردية بل جماعية بل انها تحولت الى ظاهرة اجتماعية والا لما جاء وعيد محمد شديدا وصل حد النكال والتنكيل - انما الذى لا مرية فيه ان تلك الاحاديث رغم قساوة العقوبات التى حملتها وصرامة الوعيد الذى

بشرت به لم تمنع التيوس من القاعدين من الدخول على المغيبات والاستمتاع بهن فقد رأينا فيما سلف حكاية الانصاري الذى دخل على زوجة (اخيه) الثقفى الذى كان خارجا في غزوة أو سرية... وكذلك فهمنا من سياق قصة الغامدية صاحبة ما عز انها (مغيبة) فأغراها مالك أو ربما هي التى اغرته والاصح انه تلاقت رغبتاهما

وسلك محمد في علاج مشكلة المغيبات طريقا آخر وهو نهى الازواج عن (مفاجأة زوجاتهم ليلا ويسمى (الطروق ليلا): - (إذا دخلت ليلا فلا تدخل على اهلك حتى تستحد المغيبة وتمتط الشعثة) (١١٩). والاستحداد هو حلق العانة وتسميه العامة في مصر: (النتف) (١٢٠). وهى كلمة عربية فصيحة والشعثة هي التى تفرق شعرها لعدم الامتشاط. - (إذا اطال احدكم الغيبة فلا يطرق اهله ليلا) (١٢١). - (قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: لا تطرقوا النساء ليلا حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة) (١٢٢). وقيل ان بعض الصحاب خالف هذه الاوامر الصريحة وطرق اهله ليلا ففوجئ بزوجته في احضان رجل وكان من الحتم اللازم ان يتوقع ذلك اليس هو ابن (مجتمع يثرب) وربيبه ! ! ! من الواضح ان محمدا بنهيه صحبه عن دخول بيوتهم ليلا هو ان يجنبهم المرور بتجربة قاسية تحطم معنوياتهم وتمنعهم من الانخراط مرة اخرى في سراياه وغزواته وبعوثه ونعنى بها تجربة مشاهدة الزوجة تحت رجل آخر لان الاستحداد والامتشاط والاغتسال والتزين والتعطر... الخ...

لا نستغرق جميعها من الزوجة اكثر من ساعة وهذه لاتساوى ان يقضى الزوج الليل بطوله خارج بيته خاصة وانه قد عاد مجهدا معفرا.... ولما ذا لم ينههم محمد على الدخول عن الزوجات نهارا وحالتهن في الليل أو النهار واحدة: عدم الاستحداد والامتشاط... وما الفرق بين ان ينتظر الزوج حليلته بعض الوقت حتى تتزين له سواء بالنهار وبالليل ؟ ان محمدا الحصيف كان يعرف ان الليل هو الوقت المفضل لتلاقي الاخدان خاصة في ذلك الزمان إذ لم تكن انارة الشوارع والطرقات قد عرفت بعد وادوات الاضاءة كانت آنذاك ضعيفة واهنة كليلة تمكن من الدخول والخروج في امان خاصة وان الناس قد اوت الى مساكنها وانقطعت الارجل السابلة... لهذا نهى محمد اتباعه عن الدخول على الزوجات المغيبات في ظلمة الليل حتى لا يفاجأوا بما لا يسرهم بل يفزعهم ويفجعهم ويدفعهم الى الاحجام عن الخروج. واستمرت (مشكلة المغيبات) بعد وفاة محمد فقد قرأنا في خلافة عمر ما يدل على ذلك: - (روى أبو حفص عن زيد بن اسلم قال: بينما عمر بن الخطاب يحرس بالمدينة فمر بامرأة تقول: تطاول هذا الليل واسود جانبه... وطال على الا خليل الا عبه

والله لولا خشية الله وحده... لحرك من هذا السرير جوانبه. (وفى رواية لزلزل) فسأل عمر عنها فقيل له: هذه فلانة زوجها غائب في سبيل الله فأرسل إليها مرأة تكون معها وبعث الى زوجها فأقفله بعدها كتب الى امراء الاجناد: لا تحبسوا رجلا عن امرأته اكثر من اربعة اشهر) (١٢٣). ارسال ابن الخطاب امرأة الى المتشوقة لزلزلة السرير مقصود منه مراقبتها حتى يزلزل بها سريرها بعد ان طالت غيبة زوجها ولو كان عمر يثق فيها لما فعل ذلك وارساله الرقيبة يرجع الى معرفته باحوال (المجتمع اليثربي)... اما سبب توقيت مدة غيبة الزوج باربعة شهور فمرده انه سأل النسوة عن المدة التى تصبر فيها المرأة عن المجامعة فأجبنه: اربعة اشهر - ولكن ذلك القرار لم يحسم تلك المشكلة ذات الجذور العميقة لان الاشهر الاربعة هي الحد الاقصى لا الحد الادنى خاصة وان نسوة ذلك المجتمع تعودن على المباطنة اليومية ومن ثم استمرت المشكلة دون حل: - (عن الحسن قال: ارسل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الى مرأة مغيبة كان يدخل عليها فأنكر ذلك فأرسل إليها فقيل لها: اجيبي عمر فقالت: يا ويلها ما لها ولعمر... الخ) (١٢٤). وعبارة (يدخل عليها)

واضحة تفسر نفسها وفزع المغيبة المدخول عليها من طلب عمر لها ودعاؤها على نفسها بالويل والثبور وعظائم الامور دليل على انها كانت مريبة أو إذا شئت الدقة انها مغيبة نموذجية أي

يتوافق سلوكها مع موجبات وانساق واعراف (مجتمع يثرب) الذى كانت نزعة التلاقي والتماس مع الاخر فيه غالبة. تلك جولة - على طولها النسبى - نراها قصيرة في (مجتمع يثرب) ابان العهدين المحمدى والخليفى من زاوية واحدة هي علاقة الرجل بالمرأة (والمرأة بالرجل). والعهد المحمدى هو عهد التدشين والتأسيس والتبليغ والتكوين... اما العهد الخليفى فهو حقبة التشييد والانسياح والتوسع والاعلام... والعهدان في نظرنا على درجة قصوى من الاهمية وخاصة اولهما. ومع ذلك لم يأخذا حقهما من الدراسة الموضوعية المنهجية العلمية من كافة النواحى: العقائدية أو الدينية والاجتماعية والاقتصادية بل والعسكرية... الخ. وان كان هناك ركام هائل من الكتابات الخطابية الانشائية عنها. وكتب التراث بمختلف انواعها تنضوي على مخزون ضخم ضخامة لا يتصورها القارئ العادى من المعلومات عن الفترة المحمدية خاصة ثم عن العصر الخليفى. وكثيرا ما لفتنا النظر الى ان الكتابة عن هاتين الحقبتين من القصور البين بل من السذاجة المفرطة بمكان لان الاعتماد فيها على كتب التاريخ وحدها - كع تقديرنا البالغ لها ولاصحابها - والاعراض عن دواوين السنة بمختلف اسمائها ورتبها وكتب اسباب النزول وتفسير القرآن والناسخ والمنسوخ والقراءات والعدد في القرآن ومناسبات ورود الحديث والجرح والتعديل والمتروكين والمدلسين وكل

علوم الحديث ومؤلفات الفقه نشأته في يثرب وقبل ظهور المذاهب ثم بعد ظهورها والمذاهب المندرسة والمندثرة والباقية والمستمرة وعلم اصول الفقه وكتب الطبقات في شتى المجالات وعلم الكلام... الخ. وعن كتب الادب والامالي والنوادر... (هذه نذكرها كمصدر ثان). انها جميعها ارخت لهذين العهدين تأريخا دقيقا ولكن بطريقتها الخاصة التى هي من البديهى الاتجئ مطابقة لطريقة المؤرخين وتبتعد عن السرد التاريخي... ولكن بها كنوز - وليس في هذه اللفظة ادنى مبالغة - من الاحداث والاخبار والنوازل والخطب والرسائل المساجلات والمحاورات... التى تضيئ بشكل باهر ومبهر جميع النواحى في المجتمعين المحمدى والخليفى وخاصة الاول منهما وذلك للعناية البالغة التى اولاها مصنفو وواضعو وجامعو مؤلفو... تلك الكتب لشخصية محمد حتى اننا نؤكد انهم لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة عن ذلك العهد ولها علاقة بمحمد الا دونوها ولما كان هو محور ذلك العهد فمعنى ذلك انهم سطروا كل شئ عنه ثم بدرجة اقل عن الحقبة التالية له أي الحقبة الخليفية. وفى مذهبنا انهم ادوا امانتهم ولا يطلب منهم اكثر من ذلك ولا ينال من عملهم الجبار ذاك ما لحقه من تبرير وتلفيق وتزويق حاولو ان يبروا به أو يجملوا به بعض الوقائع من اشخاص يكنون لهم في نفوسهم قداسة أو تقديرا فهذه مسألة يعذرون فيها. والعين البصيرة الناقدة التى تقرأ بوعى والتى نزعت عنها القداسات

الزيوف - التى عادة ما تصاحب القارئ لهذه الكتب - هذه العين تستطيع بقدر من التمحيص ان تكشف تلك التبريرات والتلفيقات والتزاويق وتنحيها جانبا وتعكف على الوقائع نفسها تدرسها دراسة موضوعية وتبحثها بحثا علميا مجردا وتحللها تحليلا دقيقا كما فعلنا - على قدر جهدنا وطاقتنا - في هذا البحث. فالاخبار والنوازل والوقائع والاحداث التى اوردناها معجونة - في مصادرها الاصلية - عجنا بالتبريرات والتسويغات والتلفيقات والتزاويق والتجميلات... الخ ولكننا استطعنا بعد قراءة أو قراءات مستأنية متمسكة بحبال الصبر وبعيون ناقدة متحررة من غبش التقديس الزائف ان ننفض عنها كل ذلك ونعيد قراءتها قراءة جديدة نحت جانبا هالات التبجيل المصطنعة وحللناها وعرضناها بموضوعية لعل القارئ قد ادركها. ومن المهم بمكان ان نذكر ان هالات التفخيم والتعظيم بدأت في تلك المؤلفات مبكرة للغاية ربما منذ (عصر التدوين) لان كاتبيها أو مؤلفيها أو جامعيها يكتبون عن اناس لهم في نظرهم قدر وفير من القداسة وليس صحيحا ان التفخيم والتبجيل والتعظيم لم تعرفها الا كتابات ما يسمى بكل مجانية وخفة ب (عصور الانحطاط) وان كانت النبرة زادت زيادة واضحة والعبارات تضاعفت والنهج نفسه تضخم أو لنقل انه تورم في هذه العصور ولكن الذى لا شك فيه ان البذرة كانت موجودة منذ البدايات الاولى وهذا امر طبيعي. وعجبي يتزايد يوما بعد يوم من كليات العلوم الانسانية في الجامعات المصرية والعربية والاسلامية التى لم تلتفت منذ نشأتها الى تلك الدواوين والكتب والمؤلفات... الخ كمصدر رئيسي للتاريخ والتقييم للحقبة المحمدية على وجه خاص ثم من بعدها للحقبة الخليفية

واعتمادها فقط على كتب التاريخ وحتى لا يساء فهمنا نكرر العبارة السابقة (مع تقديرنا لها ولواضعيها). وكم اسفت بل تألمت وتوجعت وانا اطالع - مؤخرا - كتابا الفه استاذ كبير مقاما وسنا - في احدى كليات العلوم الانسانية بجامعة مصرية وصاحب اسم لامع في سماء الفكر في العالم العربي لا في مصر وحدها وهو يصف تلك المؤلفات التى ذكرناها ب (الكتب الصفراء) وتحدث عنها بسخرية مريرة واستهزاء شديد واستكبار واضح وانى على ثقة كاملة انه لم يفتح كتابا واحدا منها بل ولم يقرأ سطرا يتيما فيها وكيف يصدر عالم حكما على شئ لم يطلع عليه ومن المحزن ان المادة التى يدرسها ويؤلف فيها وثيقة الصلة بهذه (الكتب الصفراء). ان ما تحتويه هذه الذخائريهم دون استثناء كل العلماء في: - علم الاجتماع - في سائر فروعه - والانثر وبولوجيا وخاصة الدينية والاقتصاد والسياسة التاريخ والتربية والاعلام والادب واللغة بل والعلوم العسكرية وتحتاج الى كتائب - ولا اقول كتيبة واحدة - من الدراسين والباحثين والعلماء لدراستها وبحثها وتمحيصها وتبويبها وتصنيفها وتحليلها وغربلتها... الخ. ولا صلة لهذه الدعوة التى اطلقها واناادي بها باعلى صوتي بما يسمى ب (معركة الاصالة والحداثة) أو (معركة التراث والتجديد) التى اصبحت الكتابة فيها ممجوجة ومملة ومستهلكة وبائخة (١٢٥) بعد ان اهرقت فيها بحور من الحبر ولا يشكل ذلك تعصبا منى ل (التراث) ولا انبهارا به فليس الى شئ من هذا قصدت بل ربما يكون العكس تماما هو الصحيح:

ان هذا الضرب من الدراسات والبحوث الذى ندعو إليه بكل ما نملك من قوة سوف يؤدى بطريق الحتم واللزوم الى تفكيك (القباب المقدسة) قداسات زيوف والتى تخيم على العقل العربي (بما فيه

المصرى) منذ قرون فتحجب عنه الهواء النقى والشمس الساطعة والى كسر القيود التى تكبله وتمنعه من الانطلاق الى الافاق الرحيبة والفضاءات غير المحدودة التى تسبح فيها عقول الاخرين والى تسليط الانوار الكاشفة على التى تكبله وتمنعه من الانطلاق الى الافاق الرحيبة والفضاءات غير المحدودة التى تسبح فيها عقول الاخرين والى تسليط الانوار الكاشفة على (النصوص) لتعرف على حقيقتها وساعتها ينعتق المخاطبون بها من هيمنتها وتسلطها عليهم في كل مناحى حياتهم حتى عندما يدخلون اماكن قضاء الحاجة ! ! ! والى تعرية رموز كبيرة الشأن رفيعة المقام ونزع الهالات المصطنعة التى احاطوها بها وعرضها بالصورة الحقيقية الواقعية بلا رتوش كما هي مرسومة في كتب التراث بعد اقصاء التزويقات والتجميلات التى اشرنها إليها فيما سلف وساعتها سوف يصيح من (يعاينها على الطبيعة): كم كنا مخدوعين ! ! وسوف يؤدى الى تحطيم (الاساطير) التى يؤمن بها حتى حملة الاجازات العلمية الجامعية الرنانة وبعضهم احضرها من بلاد (الفرنجة) ! ! ! ولكن ما الهدف من وراء ذلك كله ؟ والجواب: ان تحرير العقل العربي (وطبعا المصرى) من القيود التى تكبله والفكر العربي (وطبعا المصرى) من (النصوص) و (الاساطير) التى تشل حركته من اهم الدوافع ان لم تكن اهمها جميعا والتى ستساهم

في انتشال مجتمعاتنا من وهدة التخلف التى تتردى فيها منذ قرون. والسؤال الخاتم الذى حيرنى واقض مضجعي منذ اعوام طوال: متى تنجز تلك الدراسات والبحوث ؟ بل: من يجرؤ على مجرد الاقتراب منها الان ؟